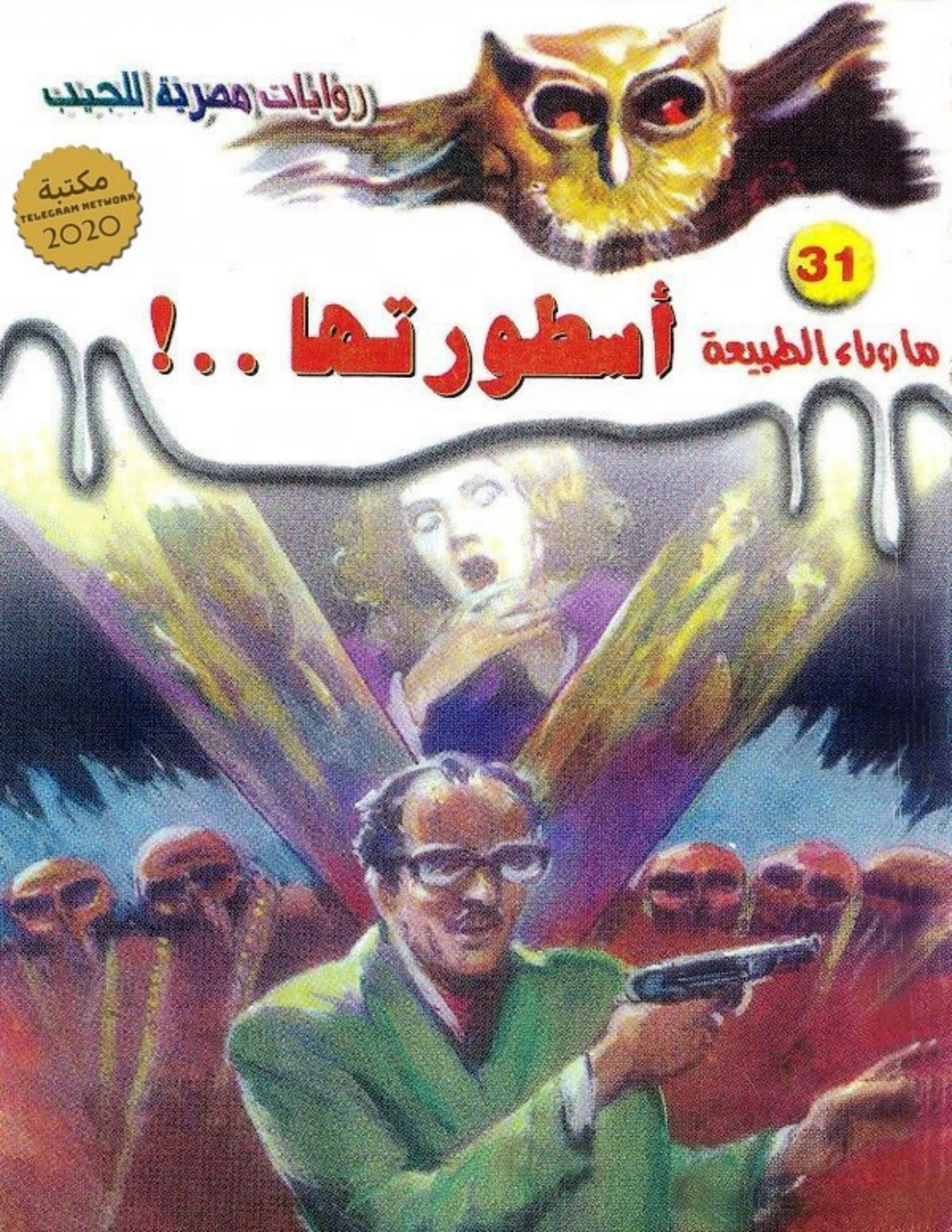

روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
31
ما وراء الطبيعة
أسطورتها..!

# مكتبة
# Telegram Network
# 2020

**«المكتبة النصية»**

**قام بتحويل سلسلة:**

**(ما وراء الطبيعة)**

**لـ « د. أحمد خالد توفيق »**

**إلى صيغة نصية:**

**(فريق الكتب النادرة)**

**يزن – المملكة المتحدة**


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

# مقدمة

لقاء جديد لنا.. العجوز (رفعت إسماعيل) بقصصه الكئيبة، وأصدقائه الشباب بعيونهم المتسعة وفضولهم النهم إلى كل جديد...

لقد جلسنا ثلاثين مرة نصغي لقصص.. ونرى صورًا.. ونستمع إلى شرائط تسجيل.. وفي كلّ مرّة كان هدفنا هو الاستمتاع.. الاستمتاع النظيف بلا تنازلات.. ضحكنا مرارًا.. وبكينا مرارًا.. وارتعبنا مرارًا.. لكننا - وهذا هو المهم - أحببنا هذه اللحظات..

والآن دعونا نبدأ قصة أخرى..

يبدو أنني ـ بعد حلقة الرعب الثالثة ـ قد نلت قسطًا لا بأس به من الراحة.. راحة تجعل مفاصلك تتصلب.. وتجعل عقلك كقدمين فارقتا الحذاء بعد يوم شاق.. إنهما تنتفخان.. تنبضان.. ثم يغدو من المستحيل إعادتهما للحذاء بعد ذلك..

حسن.. سأحاول أن أحشر عقلي في حذاء القصص مهما كلفني الأمر..

أين كنا توقفنا؟

عند العام ١٩٦٩ بعد قصة عدو الشمس، وهذين الكائنين القادمين من عالم الأطياف..

يعود الزمن إلى دورته التقليدية.. وأعود أنا لألملم ذكرياتي مع وجه فارقته طويلًا، لكنه لم يتزحزح عن عرش أحلامي قط..

إنـها لا تشيخ أبدًا كأنما خلقت من فورها..
إنـها تملك الجديد دائمًا..
إنـها تعرف كل شيء عنى ربما أكثر منـي....
إنـها الأم الأبدية.. والصديقة الأبديـة.. والأخت الأبديـة..
إنـها الحب الذي لا ينتظر حتى نُسمّيه حبًّا لأنّه هنالك دائمًا..
إنـها دائمًا أخرى.. ودائمًا هي.. فكيف؟!
تلك هي.. أسطورتها...

*   *   *

# ١ - إنـها قادمة!

أسطورتها أنها هي..

* * *

إنه أكتوبر..
يوجد ألف سبب يدعوني لكراهية الربيع.. آخرها أنه ينذر بمرض شاعري الاسم لا نجده في فصل آخر: الرمد الربيعي.
لهذا أحب الخريف.. ولو تغاضينا عن حقيقة أنه لا يوجد رمد خريفي؛ يمكننا القول بأنه الفصل الوحيد الذي له مذاق

الحزن المرهف.. والرقة الشفافة.. ذلك المذاق الذي لا نجده في فصل آخر.

في ذلك الصباح لم يكن لديَّ ما أفعله.. كنت في إجازة قصيرة، وقد قرأت كومة الخطابات التي وجدتها في بريدي.. ربما باستثناء خطابين أو ثلاثة..

لهذا قررت أن أعني بالشقة قليلًا.. لأحولها من عرين خرتيت - لو كان للخرتيت عرين - إلى شيء صالح للاستعمال الآدمي..

هناك امرأة في الخمسين من عمرها تأتي لشقتي مرّتين أسبوعيًا لتنظفها.. اسمها (أم أحمد) أو (أم حسن) أو أم شيء ما.. المهم أنها شمطاء.. وأنها تسرق السمن من البَرطمان.. ثم - الأسوأ - لا تأتي بانتظام..

أحيانًا تتغيب عني شهرًا.. لكنّها على كل حال لا تموت أبدًا..

يصر (عزت) على تسميتها (مدبرة المنزل).. وهو اسم يليق بلورد (ماونتباتن) لكنه لا يليق بـ (أم حسن) بالتأكيد.. وعلى كل حال لا يجب أن ننسى أن (عزت) هو من أوجدها لي.. وهي تسرق السمن من شقته مثلما تفعل معي..

لم تأت أم (عوض) هذه.. فهل أترك شقتي وحالها؟

بالتأكيد لا.. شرعت أمسح البلاط وأغسل الملاءات، وأبعثر الغبار بشكل متجانس بحيث لا يحتشد في موضع بعينه...

كذلك أشعلت الموقد فطهوت بعض الباذنجان، وغليت اللبن أعني أنني وضعته

ليغلي..

وهنا أعود فأقول: إن اللبن سائل ملهم.. ألا ترى هذا معي؟ ما إن تضعه على النار حتى تتداعى ذكرياتك.. وتخطر لك آلاف الأفكار العبقرية.. وتتذكر مواعيد لم تف بها.. ومكالمات هاتفية لم تجرها.. المهم أن كل شيء يدعوك لنسيان اللبن الذي على الموقد.. وتفيق لرشدك لتجد البركان الأبيض يثور بحممه.. وتدرك أنك تأخرت ثانيتين مصيريتين... لكني سآخذ حذري هذه المرّة...

دعنا من كل هذا.. ولننتقل إلى الجزء المهم في الموضوع...

قلت إنني وجدت خطابين في بريدي بقيا من كومة الخطابات التي قرأتها.. وكان

أحدهما بخط أنيق أعرفه جيدًا.. أمّا الآخر فكان بالإنجليزية.. ولم احتج إلى كثير ذكاء كي أتذكر اليد التي كتبت هذا الخط.. إنّه خط (ماجي)!

سقط قلبي في قدمي.. وشعرت بقشعريرة تجتاح جسدي..

خمسة أعوام كاملة يا (ماجي).. لم أعرف عنك شيئًا على الإطلاق..

. كنت هناك دائمًا لكنّ دون أن أراك أو أسمعك..

و.. وفتحت الخطاب....

«إنفرنسشاير في ١٢/٩/١٩٦٩

عزيزي رفعت:

سرني أن أعرف أنك بخير.. وأنك مازلت تلعب دور صائد الخزعبلات الذي

يُفترض أنك تلعبه.. أرسلت هذا الخطاب إلى عنوان عملك وعنوان دارك آملة في أنك لم تغير كلا العنوانين.. أعتقد أن كليهما صحيح.. فأنت لست من النوع الذي يستقيل من مهنته.. أو يثرى فجأة فيبتاع دارًا جديدةً..

ما أردت قوله هو أنني أعد لك مفاجأة رهيبة لكنّها لن تقضي عليك.. أنا قادمة إلى مصر في زيارة سريعة يوم ٢٤/١٠/٦٩.. أرجو أن تتصل بي لتعرف رقم الرحلة وموعد وصولها، فأنا لا أعرف رقم هاتفك..

حتى نلتقي احتفظ بنفسك حيًا.. أعتقد أنني أستحق مجاملة بسيطة كهذه.

بإخلاص: ماجى ماكيلوب»

ونظرت غريزيًا إلى نتيجة الحائط...
إنه ١٩ أكتوبر.. أي أن (ماجي) ستكون هنا بعد خمسة أيام..
ابتلعت بعض (النتروجلسرين) كي لا أموت.. إن أغنية (أم كلثوم) الرائعة (أغدًا ألقاك؟) تعبر خير تعبير عن الموقف.. وكيف يتحول الشوق إلى رهبة.. وإلى رعب يفوق رعب كل المذءوبين مجتمعين..
وهنا حدثت الكارثة.. رائحة اللبن المحترق تفعم أنفي.. لقد سال فأغرق الموقد ولم يعد باقيًا منه في الإناء ما يكفي لإشباع قطة..
ألم أقل لكم إنّه سائل ملهم سخي بالأفكار؟

تركت كل هذا وارتديت ثيابي واتجهت إلى (السنترال)، وانتظرت دهرًا حتى جاءت مكالمتي مع (انفرنسشاير)..
كان هذا هو صوتها.. يتسرب عبر سلوك الهاتف وعواصف الكهرباء الإستاتيكية.. لكنه هو.. هو..
- «(ماجي).. أنا..»
- «لا تطل الكلام يا مسكين فأنا أعرف سعر المكالمات.. سأصل يوم ٢٤/١٠ في السادسة مساء..
على الرحلة رقم (....) هذا كل شيء.. وداعًا!»
وانتهت المكالمة.....
مازالت عملية جدًا هذه الفتاة..

* * *

كان على أن أقوم بعدة أشياء في وقت واحد:

(أ) توجهت إلى فندق (....) فحجزت غرفة باسمها.. إن العبء المادي لساحق على كاهلي.. لكن ليس بالمال وحده يحيا الإنسان..

(ب) ذهبت لأبتاع بذلة أنيقة وربطة عنق وقميصين.. أعرف أن البذلة الزرقاء ما زالت تؤدي عملها وتجعلني فاتنًا.. لكنّها بدأت تبلى قليلًا.. ألا ترى هذا معي؟ ثم إنني كنت أرتديها في زيارة (إسكتلندا) إياها منذ خمسة أعوام...

(ج) ذهبت إلى الحلاق ليهذب لي الشعر الثائر المتبقي على جانبي جمجمتي.. ولا بأس بحلاقة ذقني عنده... رحت - في تعاسة - أرمق هذا الوجه المربع الذي يرمقني بتعاسة مماثلة من جانب المرآة الآخر.. لا شك أن الوقت أضيق من إجراء جراحة تجميل.. أو زرع شعر..

ولكن لماذا أقلق؟ (ماجي) قالتها يومًا:

- «إن المرأة تحب رجلها ليس لأنّه أقوى الرجال ولا أوسمهم. ولا أغناهم بل لأنّه هو.. هل تفهم هذا؟ لأنه هو بضعفه وقوته.. بهزاله وربوه وضيق شرايين التاجية..»

يا سلام! ما أبدعك يا (ماجي) أيتها الفيلسوفة الجميلة.. هذا هو نوع الآراء

الذي يروق لي..
من الغريب - صدق أو لا تصدق ـ أنني حين فكرت في هذا شعرت أنني أجمل.. وجهي في المرآة صار أكثر قسامة.. يبدو أن (إيليا أبو ماضي) كان على حق.. ويبدو أن القبح هو شعورك بالقبح فعلًا..
(د) ولا باس طبعًا من إعداد جولة سياحية لا بأس بها.. الأهرام.. المتحف المصري.. الإسكندرية.. كلا.. ميزانيتي لا تحتمل (الأقصر) و(أسوان) أرجوك.. فلنتظاهر أمام (ماجي) أنهما غير موجودتين.. أو أنني لم أسمع عنهما قط..
لكني لم أكف عن التساؤل بينما أعد كل هذا..

لماذا هي آتية؟ لماذا بدا خطابها مقتضبًا وحديثها متحفظًا؟

هل كل شيء على ما يرام حقًّا؟

لقد مات أبوها ـ السير (جيمس ماكيلوب) ـ منذ عامين.. قرأت الخبر في إحدى دوريات أمراض الدم.. وعرفت بعدها أنني لن أرى أستاذي العظيم أشيب الشعر كث الحاجبين طويل السالفين أبدًا.. الرجل المهذب الأرستقراطي الذي يفيض كبرياءً وعلمًا..

حاولت الاتصال بهم مرّتين.. وأرسلت خطابًا لا أدري إن كان قد وصل أم لا.. ثم نسيت الأمر تمامًا.. بالتأكيد (ماجي) أيضًا قد صارت أفضل..

هل تزوجت؟

معلوماتي تقول إن هذا لم يحدث.. يبدو أن خطبتها قد فشلت لأسباب لا تتعلق بحسدي وحزني.. وهذا يعني ببساطة أنها وحيدة مثلي.. وحيدة كسمكة (المقاتل السيامي) أو كأفعى في قبو قصر...

آمال مجنونة تتواثب في صدري...

إن الغد يحمل وعودًا كثيرة..

❋ ❋ ❋

- «ولد يا (إسماعيل).. لماذا دققت جرس الأستاذ (عزت)؟ أنت تعرف أنه ينام حتى الظهر يوميًا؟»

تقولها مدام (ماجي) بلهجتها العربيّة المبعثرة.، وهي تقف بمريولة المطبخ على

الباب.. ودموع ومخاط البصل الذي كانت تقشره يغطى وجهها.. فيقول لها (إسماعيل) الصغير وهو يزيح خصلات شعره الأشقر عن وجهه:

- «لأن شكله مخيف يا مامي.. أحيانًا أحسبه آكل بشر..»

- «لا عليك.. أبوك نفسه ظن ذات الشيء يومًا ما.. تعال هنا..»

ابنة السير (جيمس ماكيلوب) تقشر الكوسة وتخرط البصل، بانتظار عودة زوجها المحبوب (رفعت إسماعيل) من العمل..

و ..........

* * *

وأفيق من أحلام اليقظة.. ربما بفعل هذه البعوضة التي لسعت قفاي.. فأعود إلى وعيي وإلى تساؤلاتي..

لماذا ـ بحق السماء ـ قررت أن تزور مصر فجأة؟!

ولم أكن أعرف بالطبع أن زيارتها تحمل لي أيامًا رهيبة..

أيامًا جديرة بأن أحكيها لكم....

❋ ❋ ❋

# ٢ - إنـها هنا!

أسطورتـها أنـها تتبدل في كل ثانية كالشلال..

* * *

وفي المطار وقفت محاولًا منع نفسي من الفرار كالأرانب..

في البدء لمحت العربة التي يعلوها تل من الحقائب.. ثم لمحت شعرًا أشقر ثائرًا وعوينات سوداء.. ثم بدأت أدرك أنني أرى فتاة هشة رقيقة يمكنها أن تمشي فوق العشب دون أن تثني منه عودًا واحدًا..

واحدة فقط في العالم ينطبق عليها هذا الوصف..

هرعت مرتعبًا لأعاونها.. لكنّها قالت في لهجة رسمية متعجلة وهي تواصل دفع عربتها:

- «هاي (رِفعت)! هل سيارتك قريبة؟»

توليت لاهثًا دفع العربة، وأشرت لها إلى اتجاه ما..

- «كـ.. كيف حالك يا (ماجي)؟»

- «بخير يا (رفعت).. بخير..»

واستقرت جواري في السيارة...

ما أغرب السنين! كلما لاقيت (ماجي) شعرت بأنني أبدأ من جديد.. فها هي ذي سائحة شقراء أخرى لا تمت لي بصلة.. متحفظة قليلًا.. باردة إلى حد كبير.. هل

هذه ذات الفتاة التي توسلت إليَّ كي أبقى معها، حين وقفنا ذلك اليوم في قصر أبيها أنتظر الرحيل معه إلى (إدنبرة)؟
لحظات من الصمت وهي ترمق معالم طريق المطار من النافذة..

هنا أدركت أن جزءًا لا بأس به من برودها ناجم عن هذا الاختراع المقيت: المنظار الأسود.. فهو يصلح لضابط يريد أن يرهب اللصوص.. لكنه لا يناسب صديقًا يرمق صديقه...

- «(ماجي).. هلا خلعت هذه؟ إنها تجعلك سمجة قليلًا»

نظرت لي هنيهة ثم مدت يديها إلى وجهها لتنزعها..

عندها عرفت أنني ظلمتها..

لم تكن ترتديها على سبيل (الألاطة) إن جاز لي التعبير..

كانت ترتديها لأن مقلتيها حمراوان بلون الدم..



ثم بدأت أدرك أننى أراها فتاة هشة رقيقة يمكنها أن تمشى فوق العشب دون أن تثنى منه عوداً واحداً ..

* * *

مر النادل قرب مائدتنا، فرفعت يدي في أناقة كي يأتي.. لكنه لم يفعل.. طرقعت بإبهامي وسبابتي فلم يستجب..

هذه هي مشكلتي الدائمة.. إنهم لا يعبئون بمناداتي إياهم أبدًا.. أصدرت وسوسة من بين أسناني فاستدار في ضيق.. وجاء إليّ:

- «ماذا تريد؟»

- «كوبًا من الليمون.. لا فليكن كوبين..»

- «حسن.. لكنّ تذكر أنني لست قطة لتناديني بـ (بس بس) هذه!»

وانصرف تاركًا أذني محمرتين خجلًا.. ولم تلحظ (ماجي) الموقف لحسن الحظ

لأنـهّا كانت تفتح وتغلق منظارها مرارًا شاردة الذهن..

سألتها بعد برهة:

- «هل هو (إيوان فريزر)؟»

نظرت لي بعينين توشكان على الإمطار من جديد.. وغمغمت:

- «نعم.. كان دائمًا حولي يحاول أن يثبت لي أنني أحتاج إليه.. وفي النهاية قبلت خطبته.. لكنّ انطباعنا الأول عن الناس يكون صادقًا غالبًا.. إن (فريزر) مهرج كبير يبهرك في أول لحظة ثم لا تلبث أن تجده خاويًا ونذلًا.. وكان لا بد أن ننفصل..»

- «لم أتصور لحظة أنه هو..»

- «ولا أنا.. لكنّ الوحدة والخوف من الغد يجعلان المرء يقارف أمورًا غريبة..»

ثم جاء الليمون.. فجرعت جرعة كبيرة من كوبها.. وأعادته إلى المنضدة فأحدث قرقعة عالية.. وأردفت:

- «كنت غارقة في أبحاثي.. وفي لحظة توفي والدي وصرت وحيدة جدًا.. وبالطبع لم يتفضل السيد (رفعت) بالاتصال بي أو مراسلتي طيلة هذه السنين..»

للمرة الثانية احمرّت أذناي.. وقلت مبررًا:

- «كان خطابك الأخير جافًا.. قلت إنك خُطِبت.. وشعرت أنّ هذا يعني ألا مكان لي في حياتك بصورة مهذبة.. إلى جانب أنني شعرت أنك تتشفين بشكل ما.. لا أظن أنك تلومينني على هذا..»

- «قلت إنك ستتذكرني أبدًا..»
- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى......»
وهنا انهمر المطر من عينيها من جديد...
عزيزتي (ماجي).. لقد اعتدت أن تكوني أنت الطرف الأقوى الذي يعرف ما ينبغي عمله.. إن روحك مثقلة بالأحزان والحيرة الآن.. وهذا يجعلني في حالة عجز وارتباك.. حين يُطالب الآخِذ أن يعطى تتملكه الرهبة.. منذ متى تطلب الشمس منا الدفء؟!
وعدت أتأملها..
ذات الشعر الأشقر الذهبي.. ذات العينين الزرقاوين الواسعتين.. لكنّ شيئًا ما لم يعد كما هو.. ولا أعني بذلك أثر السنين. فالزمان يكتفي بالنسبة لـ (ماجي) بحمايتها..

بإزالة الغبار عنها.. وربما بعد ثلاثين سنة يمكن أن تبدو كامرأة في الأربعين من عمرها.. ربما....

بعد هنيهة سألتني:

- «هلا رحلنا؟»

أخرجت ورقة عملة دسستها تحت الكوب.. ونهضت:

- «الحق معك.. لا بد أن السفر قد أنهكك..»

وفي عفوية تأبطت ذراعي ونحن نغادر المكان.. شعرت بحنان غامر يغرق روحي.. ما زال بوسعي أن أمنح هذه الشمس الكاسفة بعض الدفء..

- «هل سأقيم في شقتك؟»

ابتسمت في سخرية.. وقلت:

ـ «نحن في مصر لا (إدنبرة) لقد حجزت لك غرفة في فندق..»

- «ومتى أراك ثانية؟»

أعطيتها رقم الهاتف.. ووعدتها أن أمر لأخذها في العاشرة صباحًا بعد ما تقضى ليلة مريحة.. وغدًا ربما تكون أفضل حالًا..

وفي بهو الفندق قالت لي وهي تداعب مفتاح غرفتها بأناملها:

ـ «لا تتأخر يا (رفعت).. فأنا بحاجة إليك..»

لن أتأخر يا (ماجي).. يُمكنك أن تراهني على ذلك..

* * *

الأهرام تتوهج في ضوء شمس الخريف ساحرة الجمال..
حولنا يحوم المترجمون وأولئك الفتية بخيولهم وجمالهم..
- «جمل يا أستاذ؟ حصان يا أستاذ؟»
شعرها يتوهج في الشمس هو الآخر كالذهب.. وقد احمر خداها انفعالًا وإرهاقًا وسرورًا.. ابتلعت ريقي وغمغمت: (سبحان الله!).. ورحت ألهث فوق الطريق الوعر المنحدر إياه..
سألتني في حماس وهي ترفع الكاميرا إلى عينيها:
- «أين (الكرنك) يا (رفعت)؟ أريد أن أراه!»

أعوذ بالله! ما الذي ذكرها بما كنت أحاول ألا أذكرها به؟ إن نشرات السياح هذه تثرثر أكثر من اللازم..

- «(الكرنك) من الصعب زيارته الآن.. إن السد العالي كما تعلمين..»

- «كنت أظن أن معبد (فيلة) هو الذي....»

- «بل (الكرنك).. صدقيني.. من المستحيل أن نزور (الكرنك) لأسباب قوية»

وهكذا استرحت من هذه السيرة... لكنّها عادت تتحدّث عن (الرامسيوم) وعن أديرة الصحراء.. مشكلة مصر هي أنها تعجّ بالآثار حقًّا.. ومن المستحيل أن تتحمل

ميزانيتك رؤية كل هذا، ما لم تكن مليونيرًا أو مرشدًا سياحيًا..

المهم أن اليوم مر بسلام والحمد لله..

وجلسنا نرمق الشمس الغاربة كأنه مشهد من فيلم عربي سخيف.. لم أنس لحظة أنني لا أبدو كفرسان الأحلام.. لكنّ من يملك إبداء هذا الرأي مادمنا سعيدين أنا وهي؟

سألتني عن أحوالي طيلة هذه الأعوام.. فحكيت لها عن.. عن (هويدا).. وعن كل الأهوال التي عشتها منذ حاصر (الزومبي) سيارتنا إلى أن غادر (آشتا) منزلي.. وهي تستمع بين مصدق ومكذب.. ثم قالت وهي ترمق الشمس:

- «سمعت عما حدث لـ (تابيثا) وزوجها..»

- «حاولا أن يخدعاني بقصة ملفقة عن رأس (ميدوسا).. لكني لم أكن سهل الهضم..»

قالت وقد صارت الشمس قرمزية تمامًا:

- «كانت شيطانة موهوبة.. فليرحم الرب روحها!»

اتسعت عيناي دهشة.. ودنوت منها أكثر لأحسن الإصغاء:

- «ماذا قلت؟»

- «ليرحم الله روحها..»

تلمست أصابعي إطار عويناتي.. وسألتها في حيرة:

- «هـ.. هل أعدمها اليونانيون؟»

- «لا.. بالطبع.. لقد ماتت في السجن..»

ماتت؟ غريب هذا.. لكنّ الشباب يموتون كالكبار.. لا غرابة في هذا..
- «هـ.. هل كانت مريضة!»
- «بالطبع لا يا (رفعت).. (تابيثا) كانت بصحة جيدة تمامًا.. لقد وجدوها مقتولة في زنزانتها.. يبدو أنّ هناك من يهوى فصل الرءوس عن الأعناق وقد وجدها مناسبة لهذه الهواية!»
- «يا للهول! من هو؟»
هزت رأسها.. كانت الشمس قد صارت زرقاء داكنة.. وثمّة نجمة تلتمع في الأفق الشرقي معلنة ملكوت الظلام...
قالت (ماجي) بصوتها الهادئ:
- «لا أحد يعرف.. هذا هو اللغز الذي جعلني أفر من (داندي).. بل وأفرّ من

(أوروبا) كلها.. إنني أحاول إنقاذ عنقي الخاص.»

الآن صار وجهها بقعة زرقاء لا تبين ملامحها لكني أتصورها..

- «(ماجي).. هل تعنين أنك في خطر؟»

- «نعم يا (رفعت).. خطر داهم..»

الآن لم تعد هناك شمس ولا شفق..

فقط ظلام كئيب..

ظلام ينذر بالويل..

❋ ❋ ❋

# ٣ - حكاية غريبة بعض الشيء..

أسطورتها أنها في غموض الليل..

* * *

في هذه المرّة جلسنا في أحد المقاهي السياحية في حي الحسين.. المقهى دافئ من الداخل بعبق برائحة (التمباك) العطرة.. وثمّة شيء ناعس في الجو يغريك بأن تغمض عينيك وتنام...

هناك مطرب يضع ساقًا على ساق، وقد أراح العود على فخذه، وراح بصوت مشروخ بعض الشيء يدندن أغنية لـ (أم كلثوم):

- «الليل وسماه.. ونجومة وقمره..»

نظرت (ماجي) إليه ورشفت جرعة من الشيكولاتة الساخنة.. وسألتني وهي تلعق شفتها العليا:

- «ماذا يقول؟»

- «يتحدث عن الليل والقمر وأشياء من هذا القبيل.. إن الترجمة تفسد الأمر برمته.. فأم كلثوم مزيج خاص لا يفهمه سوى عربي.. مثلها مثل صوت الشيخ (رفعت) قبل الإفطار في (رمضان)..

وصوت التكبير صباح العيد.. ومذاق الشاي بالنعناع في الحقل عند الغروب..»
نظرت لي غير فاهمة.. لكنّها تبذل جهدًا لا بأس به كي تفهم.. سألتها وأنا أرشف القهوة:

- «والآن ما هو الخطر الذي تتحدثين عنه؟»

قالت وهي تدفن وجهها في قدحها:

- «لم تكن (تابيثا) هي أول من مات.. ولن تكون الأخيرة..»

- «ماذا يدعوك للظن؟»

- «إنها تلك المكالمات الهاتفية.. لقد بدأت بعد وفاة أبي.. كنت أحيا وحدي في قصر الأسرة في (إنفرنسشاير).. الوريثة الأخيرة وآخر سلالة (ماكيلوب).. إن من سوء

الطالع أنّ هذه الأسرة العريقة التي تعود إلى عصر (ماكبث) تنتهي بي أنا.. ولن يحمل أحد على الأرض اسم (ماكيلوب) من بعدي..

أنت تعرف أن القصر واسع ومخيف.. وقد فعلت الوحشة مفعولها في حالتي النفسية.. فصرت أغادر القصر أكثر الوقت.. أو أقيم في غرفتي لا أبرحها.. إن (جراهام) رئيس الخدم يعرف كيف يدير الأمور بحنكة.. ومعه مسز (أوركهارت) مدبرة القصر وهي إنسانة كريمة المنشأ.. لكني لم أستطع قط أن أشعر براحة معهما..

كان هناك حل واحد هو أن أتزوج.. لكنّ الأمر لا يتم بالضغط على زر.. ثم إنني لو

أردت مائة زوج على شاكلة (فريزر) لوجدت.. فالكل يحلم بميراث أسرة (ماكيلوب) الأسطوري الذي هبط على الوريثة البلهاء.. إن العثور على زوج ليس نذلًا وليس لصًا وليس مدعيًا وليس رقيقًا وليس مغرورًا الأمر عسير بعض الشيء في هذا العالم».

- «أنا أعرف واحدًا!».

قلتها في سرور وقلبي يخفق.. لكنّها لم تعر كلامي اهتمامًا وأردفت:

- «.. هكذا مضت حياتي.. كنت أراسل أصدقائي القدامي.. وكونت صداقات جديدة.. ربما أهمها مع مهندس يُدعى (أندرو).. (أندرو ماكفرسن)»

- «كل الإسكتلنديين اسمهم (أندرو).. ولا أدري كيف تعرفونهم من بعض؟»
- «كما نحسب نحن الغربيين أن كل العرب اسمهم (محمد).. إنّه اسم شائع لا أكثر.. إن (أندرو) رجل طيب المعشر ومهذب.. لكنه لا يرغب في الزواج... على الأقل مني.. هناك طبيب يُدعى (ويليام) وعارضة أزياء اسمها (إلستري).. وهي مجموعة لا بأس بها.. لكنّ اليوم ينتهي على كل حال ولا بد أن تعود إلى قصرك الخاوي العامر بالأشباح.. لتنام في فراشك البارد وتقرأ قصة لـ (ديكنز) حتى يغلبك النوم، ويسقط الكتاب من يدك»
ما زال صوت المطرب يتموج في أرجاء المقهى:

- «والهوا.. آه منه الهوا!»

كل هذا كأنه حلم.. أحقًا هي معي هنا في عالمي الخاص؟ أشياء كثيرة أريد قولها لكنّها تبخرت.. عواطف كبيض في كيس ورقي.. هشم بعضه بعضًا.. فلم يبق من عواطفي إلا مزيج لا أفهم ما هو...

و(ماجي) عملية جدًا تواصل الكلام بذات النغمة التقريرية:

- «كانت حياة هادئة على كل حال.. لكنّ...».

* * *

«يا من هي أرق من نسمة المساء.. أنت جمعت جمال ألف نجمة!».

(كرستوفر مارلو)

❋ ❋ ❋

«تعطر أيها العطر بلمس يديها!».
(الرافعي)

❋ ❋ ❋

«شكرًا لحبك فهو مروحة.. وطاووس..
ونعناع.. وماء..
وغمامة وردية مرّت مصادفة..
بخط الاستواء!».
(نزار قباني)

* * *

«هي الشمس مسكنها في السماء
فعز الفؤاد عزاءً جميلًا

فلن تستطيع........»

* * *

- «(رفعت)! أنت لا تصغي إليّ!».
أعادتني صيحتها المحتجة إلى عالمنا هذا.. فرفعت عيني في حرج.. إنها لا تعرف أن المشكلة هي أنني أصغيت لها أكثر من اللازم.. إلى الحد الذي لم أعد أستوعب معه حرفًا مما تقول...

- «لا.. أنا معك.. أحيانًا يحسبني الناس شارد الذهن».

- «.. ويكونون على حق! كنت أقول لك إنني تلقّيت المكالمة الأولى في الحادية عشر مساء أحد أيام (مايو).. لا أذكر النص حرفيًا لكنه كان صوت رجل.. رجل يتحدث بنبرة عادية مهذبة، لا بذلك الصوت المبحوح الخشن الذي يتحدث به من يعاكسون بالهاتف، متظاهرين بأنهم مرعبون.. كان يقول بلهجة عادية جدًّا: إنهم سبعة.. لا ثامن لهم.. تعرفين عن أولهم في اليوم السابع».

ورشفت رشفة من قدحها.. هنا سألتها في حيرة:

- «كلام غريب.. هل تفهمين حرفًا من هذا الكلام؟»

جففت بقايا الشيكولاتة بمنديل ورقي، وقالت:

- «وقتها لم أفهم.. كان كلامًا مقفىً كالشعر.. ورأيت أنها دعابة سخيفة.. إن العالم مليء بالحمقى كما تعلم..

بعد هذا بأسبوع - أي في اليوم السابع - وجدوا جثة (جون مكارثر) وراء مقود سيارته.. وكان هناك خرطوم يقود الغازات الخارجة من العادم إلى داخل زجاج السيارة الموصد بإحكام بقطع من القماش.. إنها تلك الطريقة القديمة للإعدام بأول أكسيد الكربون.. كثيرون ينتحرون بهذه الكيفية.. لكنّ وضع الجثة وطريقة سد

ثغرات العربة تدلّ على أن الحادث جريمة قتل.. جريمة تمت بعد تخديره طبعًا».

صحت بصوت مبحوح:

- «هـ.. هل تتحدثين عن (مكارثر) زميلنا في الجامعة؟».

- «من سواه؟» - وابتسمت في مرارة - «هذا الشاب الوسيم الذي كان يملأ الدنيا مرحًا وحبورًا.. لقد مات ببساطة.. ولم يعد كائنًا».

- «و.. والمشتبه فيه؟».

- «لا أحد.. لا بصمات.. لا أثر لشيءٍ وحيد العين..».

ثم إنها توقفت وراحت تتأمل المكان حولها.. وأشارت كطفلة منبهرة إلى (نارجيلة) تركية فاخرة الشكل.. وسألتني:

- «لماذا لا تدخن هذه؟!».

كدت أضرب كفًا بكف.. هذه هي (ماجي) ذات الألف اهتمام.. تتحدّث عن الموت ثم عن (النارجيلة) بذات الحماس.. قلت لها:

- «إنها وسيلة معقدة جدًا للانتحار بالدخان.. السجائر تؤدي الغرض ببساطة أكثر..».

- «أرجوك.. اطلب واحدة..».

ليكن يا (ماجي) هانم.. لن يكون هذا أغرب طلب أقوم به لك.. وجاءت (النارجيلة) فرحت أسحب منها أنفاسًا متتابعة أمام عينيها المبهورتين.. ثم نفثت سحابة الدخان.. ووضعت المبسم جانبًا كأنما أقول لها: هل استرحت الآن؟ أكملي القصة إذن..

قالت (ماجي):

- «مرّت فترة حزن لا بأس بها.. ثم عادت الحياة إلى دورتها.. وبالطبع لم أجد شيئًا مريبًا يربط بين ما حدث وبين المكالمة.. لكني تلقّيت بعد هذا مكالمة هاتفية مماثلة..

قال لي المتحدث الرزين: إنهم ستة لا سابع لهم.. تعرفين ثانيهم بعد ستة أيام!

طبعًا رحت أصرخ وأتساءل.. وأطلقت عشرات من (من المتحدث؟).. و(كف عن هذا السخف).. لكنه كان قد أنهى المكالمة..

وبعد ستة أيام وجدوا جثة (هيلين بلاكلي).. لقد...».
- «يا إله السموات! أتعنين (هيلين بلاكلي) التي...؟».
- «نعم.. (هيلين بلاكلي) صديقتنا.. التي تدرس المحاماة...».
- «لكنّ.. هذا...».
- «نعم.. كانت إنسانة سيئة.. لكنى لو تمنيت أن يحترق كل السيئين الذين قابلتهم في حياتي لتحول العالم إلى موقد كبير! لم أكن أحب لها أن تتحول إلى الجثة المتفحمة التي وجدوها.. ثم إن الحبال التي قيدتها تدلّ على أنها كانت حية حين...».



وجاءت ( النارجيلة ) فرحت أسحب منها أنفاسًا متتابعة أمام عينيها المبهورتين ..

شعرت برغبة في القيء فرفعت كفي كي تتوقف..

بعد هنيهة استعدت أنفاسي.. فعدت أسألها:

- «..أ.. أين وجدوها؟».

- «في حوش خردة قرب (جرامبيان).. لقد كان خاتمها هو الذي جعلني أتعرفها..».

قلت لها وأنا أتناول مبسم (النارجيلة) من جديد:

- «هل تعنين أن كل هؤلاء الضحايا من شلة الجامعة؟ شلتنا؟».

- «هذا هو ما يمكن استنتاجه عند هذه النقطة.. لكني كنت أكثر حمقًا مما أظن..

فلم أربط هذه الحادثة بالمكالمتين السابقتين...

ثم جاءت المكالمة الثالثة بعد شهر...».

ـ «خمسة لا سادس لهم.. تعرفين ثالثهم بعد خمسة أيام..»..

- «هو ما تقول.. وعند هذا الحد كان لابد لي أن أتحرك.. اتصلت بـ (سكوتلانديارد) وأخبرتهم بكل شكوكي.. لم يكن عندهم ما هو أفضل من مراقبة جهاز الهاتف الخاص بي.. قلت لهم أن يراقبوا أفراد الشلة لكنّ الأمر بدا لهم سخيفًا.. لقد تفرقت شلتنا في كل مكان.. فما هو الدليل المقنع الذي يبرر تبديد أموال دافعي الضرائب من أجل وهم كهذا؟».

ناديت النادل - دون وسوسة - كي يحضر لها كوبًا من العصير.. ثم سألتها وأنا أضع المبسم جانبًا:

- «وبالطبع لم يكن وهمًا.. من مات بعدها؟»

- «لم يمت أحد.. إلا أنني قرأت في (التيمز) خبرًا قصيرًا عن موت (تابيثا) في سجنها باليونان.. لقد أوشك الأمر على أن يسبب أزمة دبلوماسية.. فما دام هؤلاء اليونانيون لا يعرفون كيف يحمون الإنجليز في سجونهم؛ فمن الأفضل أن يعيدوهم إلى (بريطانيا)..».

- «إنها نعرة بناة الإمبراطورية هذه.. إذا كنت سأذبح فليكن هذا بسكين إنجليزية لا بسكين من سكاكين القارة..»..

- «بعد هذا...».
وراحت شفتها السفلى ترتجف.. وراحت تتنفس سريعًا..
أدركت أنها على وشك الإصابة بانهيار عصبي.. لا بد أن كل هذا كثير على فتاة وحيدة رقيقة مثلها.. لزمت الصمت حتى تعود لحالتها الطبيعية.. والمطرب ما زال يترنم:
- «تعالى تعالى.. بعد سنة مش قبل سنة..».
أخيرا عادت (تتواجد).. فقالت وهي تمرر أصابعها عبر خصلات شعرها:
- «بعد هذا جاءت المكالمة الثالثة.. الثالثة؟ لا.. الرابعة.. كانت تقول ذات

الكلام.. أربعة بلا خامس.. سأعرف الرابع بعد أربعة أيام..»..

- «جميل حرصه على أسلوب المتوالية العددية.. إنني أحب هؤلاء السفاحين المنظمين.. ومن الرابع؟ هل هو (ألفريد)؟ أرجو ألا يكون (رتشارد ماكنزي)..»

- «كان هو (ألفرد) حقًّا.. مات غرقًا في حمام السباحة في داره.. توجد عصا خشبية طويلة جوار الحمام.. واضح أنها الوسيلة التي تم استعمالها لإرغامه على البقاء تحت الماء..».

- «يا للبشاعة! لماذا لا يُطلق عليهم الرصاص وينتهي الأمر؟ ثم هل توصل رجال الشرطة إلى مصدر المكالمة؟ بالطبع لا.. إن الحمقى فقط هم من لا

يتصلون من هاتف عمومي ليهددوا ضحاياهم...».

ـ «أنت تعرف الإجابة.. على كل حال بدأ رجال (سكوتلانديارد) يهتمون حين قلت لهم إن الضحيّة الخامسة لن تخرج عني أو عن (رتشارد ماكنزي) أو (إليزابث)..

وحين تلقّيت المكالمة الخامسة: ثلاثة لا رابع لهم.. تعرفين عن الخامس بعد ثلاثة أيام.. عندها تحرك رجال (سكوتلانديارد) المرعبون.. إنهم يعرفون كيف يجعلون حياتك جحيمًا.. استجوابات... استجوابات.. وشرطي خارج غرفة نومك وفي مدخل دارك، ثم مراقبة صارمة لكل المذكورين (إليزابث) و(ماكنزي).. كلا.. لم يكن

(ماكنزي) موجودًا لأنّه كان في اليابان يجري صفقات تجارية معينة..

على كل حال لقد وجده اليابانيون مشنوقًا في غرفته.. كلا.. لم ينتحر لأن آثار المقاومة كانت واضحة لأي أعمى.. إن سفاحنا لهو سفاح غير عادي.. سفاح يلاحق ضحيته عبر البحار ويظفر بها في الوقت الذي يحدده هو..».

- «وبعد هذا ماتت (إليزابث) طبعًا؟».

- «لا.. لم تمت.. لأن رجال الشرطة قد جعلوها تنتقل إلى (ليفربول).. وهي تحت حراسة مشددة حقًّا.. ثم إن الرجل لم يتصل بي.. يقول خبراء (سكوتلانديارد) إن هذا الطراز من السفاحين يؤدون مهمتهم طبقًا لطقوس خاصة أقرب إلى الطقوس

الدينية.. لا بد من الاتصال بي وإلا فلن تتم الجريمة.. هكذا قال لي البروفسور (كنجزفيلد) وهو خبير في هذه الأشياء القذرة.. واقترح رجال (سكوتلانديارد) على أن أذهب بعيدًا إلى حيث لا يجدني ذلك الوغد.. نصحوني كذلك ألا أرد على الهاتف إلى أن أسافر..».

- «لهذا فكرت في مصر.. وفي (رفعت) الكهل...».

مدت يدها لتلمس يدي.. عود ريحان فوق صخرة هرمة..

- «أنت آخر من أثق به في العالم يا (رفعت).. ألا تفهم هذا؟ أنت جزء من روحي ذاتها.. إن حالة (بارانويا) مخيفة تنتابني.. لم أعد أثق بأحد.. (جراهام)..

مسز (أوركهارت).. أحدهم سيقتلني.. أحد الخدم.. (إلستري).. (ويليام).. (أندرو).. ماذا أعرف عن أي واحد منهم؟ واحد فقط أعرف أنه أحبني حقًّا.. أعرف أنه يقبل الموت كي لا أموت..».

- «بل ويقبله كي لا تصابي بالزكام..».

قلتها صادقًا.. قلتها كأنها زفرة تغادر روحى إلى النجوم..

قالت ممتنة:

- «أعرف هذا.. وكنت أنت أول من فكرت فيه حين اقترحوا على السفر.. لم أكن أملك وسيلة سوى الخطابات للأسف.. لكني كنت أعرف أنك سترد عليّ سريعًا.. قبل أن... يتصل..»..

قلت لها وأنا أحاول التحكم في رجفة يدي:

- «هل تعتقدين أنك السادسة؟».

- «في (سكوتلانديارد) دار السؤال ذاته.. وقد رجحوا أنني السابعة ما دمت أتلقى هذه المكالمات ولم يتلقها سواي.. إذن لا بد أن تنتهي السلسلة بي.. إن (إليزابث) هي الضحيّة السادسة حتمًا..»

وصوت المطرب ما زال يتردد، وهو يطوح رأسه يمينًا ويسارًا:

- «إزاي إزاي.. أوصفلك يا حبيبي إزاي؟ قبل ما حبك كنت إزاي يا حبيبي؟».

نظرت له (ماجي).. ثم سألتني بشكل عابر:

- «ماذا يقول الان؟».

- «يقول إنّه لا يعرف كيف يصف لحبيبته حاله قبل لقائها..».

- «هذا الوقت كان يكفيني لسماع عشر ألبومات لفريق (البيتلز)..».

- «هذا هو الشرق فلا تحاولي فهمه... أنت لن تحبي (أم كلثوم) إلا حين تصيرين عربية لحمًا ودمًا.. والآن فلنعد لسفاحك هذا.. من المؤكد طبعًا أنه سيقتل (إليزابث) بالرصاص أو برميها من عل..»..

- «قالوها أيضًا في (سكوتلانديارد).. إن القاتل لا يكرر أساليبه... وقد استعمل الخنق بالغاز.. الحرق.. قطع الرقبة.. الشنق.. الغرق.. إذن لم يبق له من وسائل سوى الرصاص والسقوط من أعلى.. هناك

السم طبعًا لكنّ مزاجه السادي لا يوحي بأسلوب رقيق كهذا..».

هنا انفجرت ضحكًا.. فسألتني في غيظ:

- «ما المضحك في كل هذا؟».

- «أضحك من موقفنا.. حقًّا إنني لنحس! بعد كل هذه الأعوام نلتقي في مكان شاعري نصغي لغناء (أم كلثوم).. فعم يكون كلامنا؟ عن الذبح والحرق والخنق! مستحيل أن يعيش (رفعت اسماعيل) حياة طبيعية هادئة.. لقد صار هذا من نواميس الكون..».

- «هذا حق.. لقد صرت أنا قصتك الجديدة..»..

ثم شردت عيناها وهي ترمق المطرب.. وهمست:

- «ترى كيف ينتهي كل هذا؟ وهل تعود حياتي كما كانت؟».

لم أجب احترامًا لشرودها..

والمطرب يترنم وقد بلغ به الانسجام مداه:

- «هو العمر فيه كام ليلة.

زي الليلة؟ زي الليلة؟».

❋ ❋ ❋

# ٤ - إنّه هنا!

أسطورتها أنها تثق بي...

* * *

أغنية د. (رفعت إسماعيل)

أنا لست قويًا كأبطال الإغريق..
أنا لا أطير..
ولن أدخل مشاجرة مع رجل آخر مهما كان ضعيفًا..
إلا وقد تهشّم وجهي..

. ومع ذلك تحبينني؟

* * *

لست عداءً ولا ملاكمًا..
لست موسيقارًا أسكب ألحان حبي في أنغام..
يسمعها الناس ويتساءلون: من هي تلك المحظوظة؟
لن تري صورتي في كل الصحف مقرونة بالمديح.
لتقولي لصاحباتك: هوذا رجلي...
ومع ذلك تحبينني؟

* * *

حتى في عالم الطب..

أنا لست (ماكس ليبمان) ولا (ويليام أوسلر)..
إن الأشياء التي أعجز عن عملها لتملأ عشرة جلدات ضخمة..
أنا لن أنقذك من الغرق لأني لا أعرف السباحة..
لكني سألقي بنفسي في الماء لأغرق قبلك..
أنا لن أصارع أسدًا...
لكني سأموت بأنيابه قبل أن يلمسك..
ومع ذلك تحبينني؟

* * *

غريبة أنت.. وذوقك أغرب..
لن أفهمك أبدًا..
لكني سعيد وفخور..

وهذا هو كل ما أستطيع قوله الآن..

❋ ❋ ❋

أيام مرّت كأنها الحلم..
كنت سعيدًا كثعبان فرغ من التهام فأره الصحراوي.. أو طفل في متجر حلوى..
في الصباح نرى شيئًا جديدًا.. لا يهم ما هو.. لكنه جديد.. أعيد اكتشاف سحر النيل والهرم والمتحف المصري والإسكندرية والناس..
لا بد أنه أسبوع كامل قد مضى علينا..
وفي تلك الليلة أوصلتها إلى الفندق.. قالت وهي تداعب مفتاحها:

- «عمت مساء يا (رفعت).. لا تتأخر غدًا..».
ككل ليلة تقولها.. وككل ليلة أعدها..
وأعود إلى داري سعيدًا.. يشتمني سائقو السيارات الأخرى وأنا سعيد.. يدون شرطيو المرور رقم سيارتي وأنا سعيد.. تؤلمني ساقاي وأنا سعيد.. يمكنني فهم شعور (جين كيللى) وهو يغني تحت المطر؛ حينما نظر له الشرطى شزرًا فلم يجد تفسيرًا سوى: إنني فقط أرقص وأغني في المطر!
وحين دخلت الدار؛ أعددت لنفسي قدحًا من الشاي..
وجلست أدون ما حدث طيلة اليوم بالتفصيل.. لا أريد أن أنسى حرفًا من كل

هذا..

هنا دق جرس الهاتف...

منذ أيام كف جهاز الهاتف عن أن يكون وسيلة لملاحقتي بالكوارث في عقر داري.. إن (ماجي) تستخدمه كثيرًا لتثرثر قبل أن تنام.. لتقول لي إنها سعيدة، وإنها ممتنة لي.. ولتوصيني أن أنام جيدًا.. وأن أشرب (التليو) لأهدئ أعصابي الثائرة دومًا..

رفعت السماعة أنتظر سماع البلابل تغرد..

كانت البلابل هناك.. لكنّها لم تغرد.. كانت تعوي في جنون:

- «(رفعت)! لقد اتصل بي!».

- «مساء الخير يا (ماجي).. قلت لك أن مندوب شركة السياحة سوف...».

- «أنا أتحدث عنه.. عنه!».

- «ماذا؟ المتحدث الرزين إياه؟».

- «نعم! قال لي: إثنان لا ثالث لهما.. تعرفين عن السادس بعد يومين!».

أحسست بالخطر.. وجف قلبي.. تصلبت شعيرات شاربي لأني لا أملك شعر رأس.... كيف؟ هل هو؟

- «(ماجي).. هل أنت واثقة مما تقولين؟».

- «مثلما أعرف أنني أنا.. (رفعت).. إنه قريب مني جدًّا!».

جلست متهالكًا على مقعدي.. الأمر يتجاوز قدراتي على التفسير..

- «هل هناك من يعرف أنك في هذا الفندق؟».

- «لا أحد سواي وسواك.. ثم إن المكالمة لم تأت من (انجلترا).. إنها من (القاهرة).. لقد تأكدت من هذا بنفسي..».

- «إذن هو قد جاء خلفك..».

ثم استجمعت قواي.. فقلت لها بصوت متعقل:

- «دعينا نناقش الأمر في الصباح.. إن شيئًا لن يحدث قبل يومين.. لم لا تحاولين النوم الآن؟».

أطلقت سبة إنجليزية لا أعرف معناها الدقيق..

وصاحت:

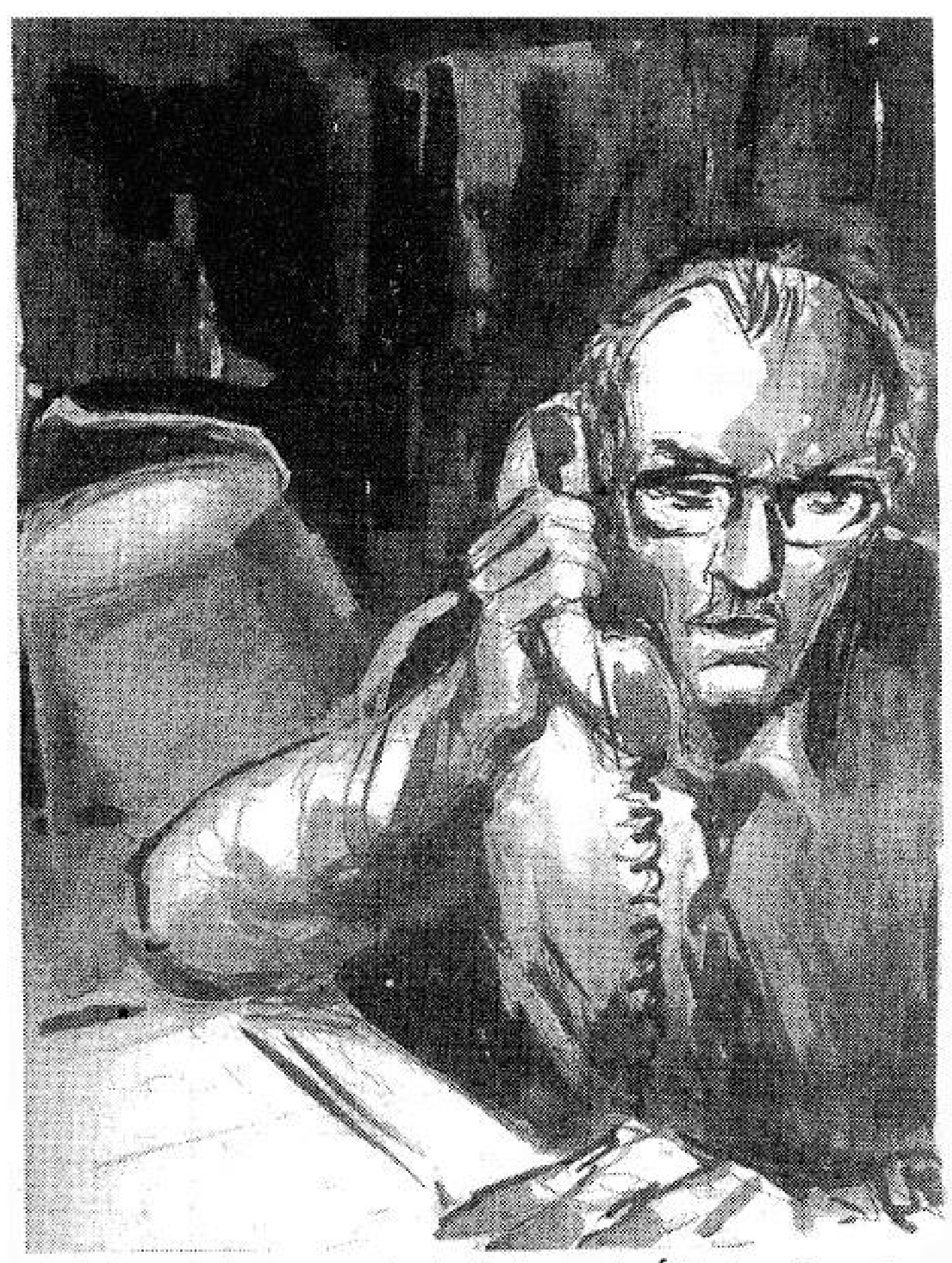
- «بحق السماء.. أتحسب أنني قادرة على النوم بعد هذا؟».

- «إن أقراص (الفاليوم) صالحة تمامًا.. وإن لم تجد فهناك السم.. لكني غير متحمس له لأسباب يطول شرحها...».

- «تبًّا لك!».

ووضعت السماعة في عصبية.. يبدو أنني بالغت في المزاح قليلًا.. ليس من الأمور المستحبة أن تعرف أن سفاحًا يحوم حولك ويعرف رقم هاتفك.. كان على أن أقدّر هذا..

المهم.. نهضت لأضع قرصًا من (النتروجلسرين) تحت لساني.. يبدو أن



رفعت السماعة أنتظر سماع البلابل تغرد .. كانت البلابل هناك .. لكنها لم تغرد .. كانت تعوى فى جنون :

ـ ( رفعت ) ! ..

إمداد الدم لعضلة قلبي لا تناسبه أخبار كهذه...
إنه هنا! يعلم الله كيف ومتى جاء إلى مصر..
لكن خطرًا داهمًا يهدد حياة (ماجي) بعد يومين..
خطر بنسبة خمسين بالمائة...
ما زال من الممكن أن يكون الكلام مخصصًا لـ (إليزابيث)...
وفي قرارة نفسي تمنيت أن يكون ذلك صحيحًا..

* * *

في الصباح قابلتها.. وكانت - كما تتوقع - أسوأ حال..

- «(رفعت).. إنّه خلفي! يعلم أنني جئت هاهنا.. ويعلم الفندق الذي أقيم فيه.. ويعرف رقم غرفتي!».

كنا جالسين في (السنترال) بانتظار مكالمتها إلى (إنجلترا)..

- «يجب أن يعرفوا أنه اتصل.. وأن يضاعفوا الحراسة على (إليزابيث) البائسة.. من يدري؟».

أردت أن أطمئنها على (إليزابيث) بحماقتي المعهودة.. فقلت:

- «مادام يتصل من مصر.. فمن المؤكد أنك أنت القادمة لا (إليزابيث).. يُمكنك الاطمئنان إذن!».

- «صحيح.. شيء مطمئن.. أشكرك..».

هنا جاءت المكالمة - بعد دهر كالعادة - فهرعت إلى الكابينة.. وفتحت لي لأدخل معها.. وبيد مرتجفة تناولت السماعة.

انطلقت في الكلام بإنجليزيتها الصميمة حتى إن ربع ما تقول كان يفوتني.. حين يتحدث الإنجليز إلى سواهم يتعمدون إظهار مقاطع الكلام والضغط على الحروف.. لكنّ حين يتحدثون فيما بينهم يلتهمون نصف الحروف باعتبارها شيئًا يؤكل...

فهمت أنها تطلب المفتش (جيرهارد) في الإدارة.. تخبره بأنها تلقت المكالمة السادسة.. تصمت.. تهمهم.. تقطب.. أرمقها في اهتمام.. لا أدري حتى اليوم إن كانت جميلة أم لا.. المهم أنني أهيم بكل

ملمح من ملامحها.. وكل تجعيدة على جانبي فمها.. وهي تتابع المحادثة باهتمام..
سمعتها تملي رقم هاتفي.. ثم تقول للمتحدث مرارًا:
- «آها.. إذن هو كذلك؟».
ثم ودع المتحدث.. ووضعت السماعة.. ولم تنظر لي..
- «هيا بنا..»..
وغادرنا الكابينة إلى الهواء البارد بالخارج..
عطست مرّتين.. ثم سألتها وأنا أتمخط في عناية:
- «هل من جديد؟».
قالت وهي تخف السير وقد دسّت يديها في جيبي معطفها:

- «أنباء مهمّة جدًّا.. إن أحد أصدقائي - (أندرو) بالذات - قد غادر المملكة منذ أيام.. من المصادفات الغريبة أنه قرر فجأة أن يستمتع بشمس مصر في الشتاء!».

قلت لها بغباء وقد استيقظ حسي السياحي:

- «لم لا؟ إن جو مصر المشمس في هذه الفترة بالذات لهو...».

نظرت لي في حنق.. ثم قالت ضاغطة على كلماتها:

- «(رفعت).. أحقًا لا ترى ما يريب في هذا؟ هناك من يعرفني وهو موجود في مصر الآن.. يمكن القول دون تردد إنّه هو (أندرو ماكفرسن) نفسه..».

- «معنى هذا أنه هو قاتلك المتسلسل؟».

- «لا أعرف سوى حقيقة واحدة.. لا يوجد في (مصر) كلها من يعرف كل شيء عني سواك و(ماكفرسن) هذا..».

- «وهل هو يعرف أنك في مصر؟».

- «لا أحد يعرف.. قلت لرفاقي والخدم إنني ذاهبة إلى (سان موريتز) للتزلج.. إن الموسم لم يحل بعد لكنهم لم يلاحظوا..».

- «على كل حال يمكن اكتشاف الحقيقة بسهولة..»

- «قال لي المفتش أن آخذ حذري.. أو أعود إلى المملكة فورًا.. لكنني - برغم هذا - أشعر بالأمان هنا أكثر..»..

وجلست في السيارة جواري.. فأدرت مفتاح (الكونتاكت) باحثًا عن سؤال جديد.. ماذا كنت أريد قوله؟ آه!

- «هل (أندرو) هذا مخبول أو لديه من الأسباب ما يدعوه لقتل شلتك واحدًا واحدًا؟»

قالت وهي تدير مقبض الزجاج بجوارها:

- «إنّه إنسان متزن جدًّا.. ودود جدًّا.. لكني لم أعد أثق بأحد على الإطلاق.. كل السفاحين متزنون ودودون.. وكلما اعتقل البوليس أحدهم ضرب الناس كفًا بكف: لم نتصور قط أنه سفاح.. لقد كان متزنًا ودودًا بارًا بوالديه إلى أقصى حد..».

تذكرت هنا عبارة (عادل) الرائعة، حين كان على وشك القبض على سفاح الإسكندرية في قصة آكل البشر.. لقد قال لي:

- «إن السفاح ليس شخصًا منكوش الشعر، يجري في الشوارع شاهرًا سكينًا واللعاب يسيل من شدقيه!».
لم أنس هذه العبارة قط..
ولكن.. هل القضية بهذا الوضوح حقًّا؟

* * *

افترقنا في المساء..
عدت إلى شقتي.. لا داعي للاعتراف بأن زيارة (ماجي) لمصر قد فسدت تمامًا.. لقد عكر الخطر الداني كل أمل في أن تنعم بزيارتها..
جلست في الصالة، وأحضرت ورقة وقلمًا ورحت كديدني أدون النقاط المهمة في هذه

القضية.. أحيانًا يُولد التفسير على الورق.. وأحيانًا يزداد الأمر تعقيدًا.. المهم دائمًا هو أنني أعرف على وجه اليقين ما ذلك الذي أعرفه:

١ - توجد جرائم قتل متعددة.. إن ذكائي يؤكد هذا.

٢ ـ من الواضح أن مرتكبها (قاتل متسلسل) أو ما يسموّنه Serial Killer

٣ ـ من المحتم أن ينفذ سبع جرائم أتم خمسًا منها بنجاح تام.. ربما كان ولعه بأسلوب المتوالية العددية لعبة استمدها من قصص (أجاثا كرستي).. وربما كانت هذه رسالة ما.. لا أدري..

٤ ـ القاتل يعرف السبعة.. كلهم شلة واحدة في جامعة (داندي).. منهم من كان

يدرس الهندسة، ومنهم من درس الأدب أو الفيزياء.. هل هو ثامن الشلة؟

٥ - (أندرو ماكفرسن) صديق (ماجي) في (مصر) الآن.. إن هذا مريب حقًّا.. فهل كان في (اليونان) حين ماتت (تابيثا) وكان في (اليابان) حين مات (ماكنزي)؟ إن إخفاء هذا مستحيل..

٦ - ولو كان هو (أندرو).. فما علاقته بالشلة المنكوبة؟

٧ - وهو السؤال الأهم: هل (ماجي) تعرف أكثر مما قالت لي؟ لقد كان هذا دأبها دومًا.. إنها ممن يمارسون الكلام بالقطارة..

٨- وهو السؤال خارق الأهميّة: من الذي سيموت غدًا؟ (إليزابيث) أم (ماجي)؟

على الأقل أنا أعرف إجابة هذا السؤال..

توجهت إلى غرفة النوم.. رفعت حشية الفراش وأخرجت المسدس الذي لم أستعمله منذ زمن.. متى أطلقت آخر رصاصة منه؟ على (العساس)؟ ربما.. لكنها ليست الأخيرة..

القوة المطمئنة للمعدن الأسود البارد في يدي..

أنا أعرف أن (ماجي) لن تقتل غدًا..

❋ ❋ ❋

# ٥ - فلينته اليوم سريعًا..

أسطورتها.. أنها استعمرت وجداني دون مشاة ولا مدافع أسطول..

* * *

ليلة سوداء قضيتها.. أسود من لحية (راسبوتين) وعباءة (دراكيولا).. ورحت أحلم.. أحلم أحلامًا صبيانية للأسف كاد جبيني يندي لها خجلًا..

هي ذي (ماجي) في الأدغال تسقط في الماء صارخة.. تمساح وغد يخرج من القاع فاتحًا فكيه الرهيبين.. عندئذٍ يثب

(رفعت) العظيم عاري الصدر ملوحًا بخنجره.. ويصارع التمساح ويمسكه من ذيله.. ثم يعقده ويلقى به بعيدًا..، (ماجي) خطفها النازيون إلى قلعة النسور.. (رفعت) العظيم يهشم الباب بقدمه.. ويدخل حاملًا (مترليوز) عملاقًا.. النازيون يتطايرون في كل صوب والدماء تتناثر.. (ماجي) تنظر لي في انبهار وقد فهمت أخيرًا أنني الرجل الذي يصلح لها..

يدها الحالمة تداعب صلعتي.. و......

جرس الإنذار يدق!

رنين المنبه.. يا للعنة! إنّه اليوم الموعود..

هرعت إلى الفندق.. وأخبرتها بالهاتف إنني أنتظرها في الاستقبال.. هكذا أفعل

صباح كل يوم..
بعد برهة جاءت.. وأدركت من شعرها المشوش وانتفاخات جفنيها أن ليلتها لم تكن أسعد حالًا.. وأن معنوياتها (زفت).. لم تقل هذا بالضبط لكنّها ذكرت لفظة إنجليزية مماثلة لها نفس الرنين!
- «ما هو برنامجنا اليوم؟»
سألتني وهي ترشف القهوة.. فأجبتها وأنا أتصفح الجريدة:
- «برنامجنا هو البحث عن مكان لا يمكن فيه ذبحك، أو إغراقك أو رميك بالرصاص ببندقية تلسكوبية، أو إلقاؤك من عل...»
- «وأين هذا المكان؟» - بسخرية سألتني
- «في القبر؟»

- «عندي ما هو أشبه بالقبر.. شقتي.. ستمضين اليوم عندي.. وغدًا يوم آخر..»

- «لا بأس.. كنت سأقترح عليك شيئًا كهذا..»

وانطلقنا بالسيارة إلى الدقي..

كنت قد قدمت عرضي.. لكني ظللت أتساءل عن الطريقة العبقرية التي أستطيع أن أصعد بها إلى شقتي دون أن يخرب الجيران بيتي..

لقد كادوا يخربون بيتي حين استضفت (هن - تشو ـ كان) وهو كاهن من التبت.. فماذا سيفعلون حين أستضيف حسناء من (إسكتلندا)؟

على كل حال لن يكون الزحام شديدًا.. إنها الحادية عشرة صباحًا، ولن يقابلني

سوى صبي الكواء على الأكثر..
تذكرت (براكسا) حسناء المقبرة.. وارتجفت..
عند مدخل البناية لم يكن البواب موجودًا.. فهو يتسلى بالعمل مناديًا للسيارات على سبيل تحسين الدخل.. ولا تجده أبدًا إلا أول الشهر حين يتقاضى راتبه الشهري..
وصعدنا إلى الشقة دون مشاكل..
فتحت لها الباب وراحت تتشمم الجو في فضول، وكفاها لم تفارقا جيبي معطفها.. قالت في هدوء دون تعبير معين:
- «إذن أنت تعيش هنا؟»
- «لا تخافي.. لقد تخلصت من الوطاويط والثعابين أمس..»

كنت أتكلم وأنا آتي بحركات أشبه بحركات الحواة.. أداري بنطال المنامة الملقى على هذا المقعد... أركل هذا الحذاء بعيدًا.. أغطي بالمفرش بقعة الشاي هذه.. أين أنت يا أم (عوض)؟!

قالت (ماجي) في خبث وهي تتأمل المكان:

- «الآن صدقت أنه لا توجد امرأة في حياتك!»

- «تعنين أنه لا توجد روائح عطرية أو...»

- «بل أعني أنه ما من امرأة تتحمل هذه الفوضى.. لقد رأيت مقالب قمامة أكثر نظامًا وجمالًا من هذا البيت!»

- «أشكرك..» قلتها في كبرياء - «.. وعلى كل حال.. هناك امرأة في حياتي..»

- «حقًّا؟!»

- «نعم.. واسمها (أم عوض) أو (أم سعد) - لا أدري بالضبط - وليس ذنبي أن زوجها ضربها على رأسها بزجاجة الزيت، وحلف عليها بالطلاق ألا تغادر الدار ثانية.. يبدو أنها رفضت أن تعطيه النقود التي كسبتها من العمل ليشتري بها حشيشًا!».

- «فهمت..»

قالتها دون أن تفهم شيئًا بالطبع.. ونزعت معطفها وجلست على الأريكة للحظة لم أدر ما ينبغي عمله.. فالأمر كله أشبه بحلم..

قلت لها إنني سأتغيب بعض الوقت، وفتحت لها جهاز التلفزيون.. لأكتشف أنه



قالت ( ماجى ) فى خبث وهى تتأمل المكان :
ـ الآن صدقت أنه لا توجد إمرأة فى حياتك ! . .

لا يوجد إرسال صباحي في عام ١٩٦٩..،
أحضرت لها كومة من الكتب الإنجليزية وأكداسًا من الصور الفوتوغرافية..
نزلت للشارع فابتعت وجبة جاهزة لشخصين.. وبيضًا وخبزًا للعشاء.. و.. ليتني أعرف كيف يدعو الناس بعضهم البعض..
عدت للبيت.. فلم أجدها في الصالة.. دخلت حجرة المكتب فوجدتها جالسة تتصفح بعض المراجع الطبية.. منها كتاب (تشامبرلين) القديم الذي كان معي في (إسكتلندا)..
ولم يفتها بالطبع أن ترى على كل هوامش الكتاب ذلك الوجه الرقيق أشقر الشعر؛

الذي لم أكن أستطيع أن أطالع الصفحة دون أن أرسمه على الهامش..

- «هذه.. أنا؟»

قالتها في رقة.. قالتها في ثقة.. قالتها في امتنان...

- «ومن سواك؟»

كانت هناك أبيات شعر لـ (شيلي).. ومقاطع من أغنيات عاطفيّة.. ومناديل ورقية تخلصت هي منها لكني احتفظت بها بين دفتي الكتاب.

نظرت لي بعينها الزرقاء الصافية.. وهمست:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستكون لي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجومّ كلها.. وحتى.....»

ترررررررن!

جرس الباب! منذ خمسة عشر عامًا وأنا أحاول إتمام الجملة الأخيرة.. ولا بد في كلّ مرّة أن يبرز لي وحش (لوخ نس) أو شبح السير (ماكيلوب) أو يدق جرس الباب.. أنا نفسي أتمنى معرفة ما سأقوله بعدها..

تركتها في غرفة المكتب وهرعت إلى الباب.. وقبل أن أمد يدي للمقبض تحسست يدي المسدس.. فمن يدري؟

* * *

- «(ماجي)! انحرفي يمينًا!»

لاااااااااه

ولكن الموسيقا كانت تغطي على أصوات الصراخ..

* * *

كان القادم هو (عزت)..

(عزت) في الثانية عشرة ظهرًا؟ هذا غريب..

كان بكامل ثيابه، وهو يلتهم قطعة من البسكويت المملح..

فما إن رآني حتى هتف في مرح:

- «صباح الخير يا (رفعت)..»

ـ «صباح الخير.. إن استيقاظك مبكرًا اليوم لهو ظاهرة كونيّة..»

قال وهو يكوّم غلاف البسكويت، ويرميه في صندوق قمامتي:

- «ليس بيدي.. لقد أيقظني من النوم ذلك (الخواجة) صديقك.. قلت له إنّه من المستحيل أن تكون في الشقة.. لكنّ...»

غمرتني الدهشة، فقاطعته مستعيدًا ما قال:

- «ماذا؟ (خواجة)؟ صديقي؟ ماذا قال؟»

- «لا شيء.. كان يتحدث العربيّة الرديئة جدًا على غرار الخواجة (بيجو).. قال إنّه يريدك لأنّه صديقك.. أشرت له على شقتك وأنا أوشك على ضربه لأنني لم أنم بما يكفي.. دق الجرس مرارًا... وقرع الباب مرارًا.. ثم عاد يائسًا وترك لك هذا الخطاب..»

وناولني مظروفًا مفتوحًا به ورقة مطوية..
ـ «وكيف كان يبدو؟»
- «لا أدري.. يبدو من النوع الذي لا يُقهر بسهولة وإن تظاهر بالعكس.. وهو يجيد ادعاء القنوط لكنه متفائل!»
صعد الدم إلى رأسي.. فصحت وأنا أوشك على الإصابة بنوبة قلبيّة:
- «يا لك من.....! أنا لم أطلب تحليله النفسي أو اختبار فراستك.. أريد معرفة هل هو طويل. أم قصير؟ بشارب أم لا؟»
بدا الذكاء على وجهه الكالح.. وفكر قليلًا ثم قال:
- «لا أدري.. إنّه رجل أجنبي.. كلهم يتشابهون.. كان حليق الوجه.. هل هذا

كاف؟»

- «حسن.. شكرًا يا (عزت).. لن أدعوك للدخول إذ تبدو متعجلًا..»

- «نعم.. إنني أحلم برؤية (القاهرة) نهارًا!»

وهكذا أغلقت الباب، وقد تحول رأسي إلى محرك قطار.. ما معنى قدوم رجل أجنبي إلى داري يسأل عني؟

على كل حال يمكنني أن أقرأ الورقة..

ورقة أنيقة هي.. كتب عليها بخط مهندم وبالإنجليزية:

- «لقد اقتربنا جدًا!»

كنت أتوقع شيئًا كهذا..

إن التهديد واضح وصريح.. وقادر على الوصول إلى داري..

عدت إلى (ماجي) في حجرة المكتب.. كانت عاكفة على تقليب صفحات كتاب (تشامبرلين) إياه.. غافلة بالطبع عن فحوى رنين الجرس..

هل أخبرها؟ لا داعي.. لن يضيف قلقها شيئًا..

لكن (ماجي) ذكية إلى حد مخيف كما تعرفونها دائمًا.. لقد قرأت القصة كاملة على ملامح وجهي.. وسألتني:

- «هناك خبر مفزع.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. قد تكون دعابة..»

- «الدعابات لا تظهر في يوم كهذا.. هلمّ.. أتحفني..»

قدمت لها الورقة فقرأتها بعناية.. ثم سألتني عن صاحبها.. فأخبرتها.. سألتني

عن سماته.. فقلت لها:
- «رجل يجيد ادعاء القنوط لكنه متفائل..»
- «أتمزح؟»
- «هذا هو كل ما رآه (عزت) جاري فيه.. إن (عزت) يتمتع بفراسة غير مسبوقة.. على كل حال هو حليق الوجه.. هل (أندرو ماكفرسن) حليق الوجه؟»
- «.. حليق؟» - قالتها في شرود وهي تغلق الكتاب وتعيده إلى موضعه في المكتبة - «.. هووم؟! غريب.. إن (أندرو) ملتح.. على كل حال يمكن دائمًا حلق اللحى..»
- «وقد لا يكون هو..»
وما معنى هذا كله؟

معناه أنّ هذا الشخص بارع جدًا.. ربما تتبع سيارتي.. وربما راقبني أنا و(ماجي) أيامًا.. إنّه يعرف علاقتي بها جيدًا.. فحينما ترك رسالته هذه لم تكن (ماجي) في شقتي..

كان يريد مني أن أبلغها بهذا كله..

❋ ❋ ❋

وتمر الساعات متوترة..

متى ينتهي هذا اليوم المقيت؟

هل ينتهي في الثانية عشرة مساء بتوقيت (القاهرة) أم بتوقيت (مالاجاش)؟ وهل تكفي حمايتي لـ (ماجي) كي تجعله يعدل عن المحاولة؟ ربما سيحاول.. وعندئذ

يكون من واجبي أن أكون أكثر حذرًا... وربما لن يحاول.. سيؤجل الموعد إلى الغد.. محاولة صغيرة للغش في اللعب.. لم لا؟ إنّه هو الذي يمسك المفاتيح في يده..

فهل ستظل (ماجي) مهددة هكذا للأبد؟

كنا جالسين في الصالة نشاهد التلفزيون..

برنامج أطفال سخيف عن البطة (بط بط) والكلب (بوبي) والقطة (بسبس).. دمى بدائية سخيفة.. حوار ممل.. لكننا كنا متوترين عصبيًا حتى رحنا نتابع هذا الهراء في شغف..

ثم رحنا نضحك.. نضحك....

ونظرت إلى الساعة.. إنها الثامنة مساء.

لم نكن قد تناولنا طعام الغداء.. فقدنا شهيتنا.. كما لم أوجه لها عبارة رقيقة

واحدة.. من يملك البال الرائق للرومانسية وسط هذا التوتر المنذر؟

كانت جالسة القرفصاء فوق الأريكة تتابع برنامج التلفزيون الذي لا تفهم منه حرفًا.. قطة صغيرة تحتاج إلى حماية أي كائن حتى لو كان هذا الكائن هو (رفعت اسماعيل)..

التاسعة مساء......

مذيعة مملة تسأل ضيفًا أكثر إملالًا:

- «هل تعتقد سعادتك أن العمل فضيلة وعبادة؟»

يقول لها وهو يسترخي في كرسيه، وكرشه يزداد تكورًا:

- «إن رأيي الخاص الذي قد لا يوافقني عليه الكثيرون هو أن العمل فضيلة

وعبادة.. أقولها بصراحة وأمانة..»
سألتني (ماجي) وهي تقرض أظافرها:
- «عم يتكلمون؟»
قلت لها في خجل:
- «يتكلمون عن.. عن المستقبل النووي لـ (مصر)!»
ثم نهضت لأعد بعض الشاي.. كلا.. لن أسلق البيض الآن.. يجب أن يكون هناك ما أفعله في العاشرة مساء وإلا جننت..
هل الأبواب مغلقة كلها؟ بالتأكيد...
باب الشرفة مغلق.. والنافذة مغلقة.. وباب الشقة..
وهنا خطر لي خاطر مروع..
هل يكون القاتل معنا في الشقة؟

لِمَ لا؟ ربما تسلل إليها في الصباح بعد ما تأكد من عدم وجودنا بها.. وهو الآن ينتظر.. ربما وراء ستارة غرفة النوم أو تحت الفراش أو تحت مائدة الطعام!

ربما كان معنا طيلة الوقت ونحن لا.........

هنا ساد الظلام الشقة..

وسمعت (ماجي) تصرخ......

* * *

# ٦ ـ التوتر..

أسطورتها.. أنها قطعة من الشعر.. قطعة من التاريخ..

* * *

كان لهب الموقد تحت براد الشاي كافيًا كي أرى ما حولي..
مددت يدي إلى الشمعة التي أضعها دومًا على رخامة المطبخ... وأشعلتها.. وهرعت إلى الصالة لأرى..
ومن جيب بذلتي أخرجت المسدس البارد..

على الضوء الشاحب المتراقص الواعد بالظلال، رأيتها.. كانت واقفة على الأريكة وقد أحاطت وجهها بمرفقيها.. ونظرة هلع في عينيها وهي تنظر إليّ.. هل رأيتم من قبل التماع ضوء الشمعة في عينين زرقاوين؟ إنّه مرعب!

قلت لها مطمئنًا:

- «لا.. لا بأس.. إن هذا يحدث كثيـ...»

ثم فطنت إلى أنها ليست خائفة فحسب.. بل هي خائفة مني! عيناها لا تفارقان المسدس في يدي.. إنها تراه للمرة الأولى هنا.. ويبدو أنها شيئًا ما...

- «لا.. لا تقتلني!»

نظرت إلى المسدس في بغباء.. وغمغمت:

- «آه! أنت تظنين أنني هو يا (ماجي)؟ وأنني كنت ألعب لعبة بارعة صبورًا لأجعلك تقعين في الشرك؟»

- «أنـ... أنت قطعت التيار الكهربي!»

قلت لها في أسي وأنا أضع المسدس على الأريكة جوارها:

- «هذا هو ما لا أطيق.. لقد دخلت في دائرة شكوكك.. ولن يجدي أي اعتذار منك لتبرير موقفك.. حسبت أن ما بيننا أقوى من (البارانويا).. لكني كنت مخطئًا..»

وأدرت لها ظهري قائلًا في اشمئزاز وأنا عائد إلى المطبخ:

- «حسن.. هذا هو كل شيء.. خذي المسدس وتولي الدفاع عن نفسك أو قتلي.. لا يهم..»

كان هذا كافيًا.....

سمعت صوتها المرتجف يناديني:

- «(رفعت)! عُد..»



ثم فطنت إلى أنها ليست خائفة فحسب . . بل هى خائفة
منى ! عيناها لا تفارقان المسدس فى يدى . .

تظاهرت بأنني غير مهتم...
- «(رفعت)! خذ مسدسك وعُد لتحميني!»
واصلت سيرى للمطبخ..
- «(رفعت)! عليك اللعنة! يا عصا المكنسة الصلعاء.. أيها الثعبان الذي يتظاهر بأنه سحلية!»
كان هذا كافيًا.. انفجارها هذا كاف لتهدئتها..
وعدت لها وجلسنا على ضوء الشمعة المتراقص.. شعرت برأسها الصغير يغوص في صدري ويهتز بالبكاء.. يهتز..
- «آ.. إسفة!»
لم أقل شيئًا.. إن لها الحق كل الحق فيما قالته وحسبته..
- «(رفعت).. للأبد؟»

- «ماذا؟»
- «هل ستظل معي للأبد؟»
- «.. وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى....»
وفجأة هبّت بحركة درامية.. وصاحت..
- «صه! أنصت! ثمّة حركة في غرفة المكتب!»
وأنا يا رفاق أعرف النساء إلى حدٍ ما.. على الأقل أعرف هذه الإنذارات الهستيريّة التي يقطعن بها القصص.. لهذا لم أهتم كثيرًا بما تقول..
لكني تذكرت الخاطر الذي جاءني في المطبخ منذ ثوان...
من الأفضل أن نتحقّق بنفسنا..

نهضت معها.. أمسكت بيدها ـ لو تركتها حيث هي لماتت ذعرًا ـ ورحنا نشق طريقنا عبر أدغال الشقة..

أنت تعرف رقصة الظل هذه.. حين يغدو وراء كل ركن سفاح ينتظر.. وخلف كل باب شبح متربص.. وتحت كل مائدة مسخ مترقب.. قصة (الغرفة الحمراء) لـ (هـ. ج. ويلز) خالدة حقًّا.. وتناسب: كل كارهي الظلال مثلي..

لكن لا شيء......

صوت غريب آتٍ من المطبخ.......

دخلت المطبخ و(ماجي) ورائي، متخذًا وضع رجال العمليات الخاصّة الذين نراهم في الأفلام الأمريكية.. ظهري للحائط.. فوهة المسدس الأعلى.. ثم أثب إلى الداخل

مثبتًا المسدس بكلتا يدي (لو أنّ المرحومة أمي رأتني لقتلها الفرح).. و(ماجي) ترفع الشمعة لأعلى..

كان الصوت هو صوت براد الشاي الذي جف ما به من ماء...

أعدت ملأه من جديد.. ثم بحثت حتى وجدت كشافًا صغيرًا.. ورحت به أواصل البحث عن سفاحنا المختفي إياه..

- «ولكن لماذا انقطع التيار الكهربي؟»

- «يا ملاكي.. إن عدم انقطاع التيار الكهربي هو المثير للقلق.. حاولي أن تنسي نظرية المؤامرة هذه بعض الوقت..»

كنا قد انتهينا من البحث.. لا شيء.. لا يوجد في الشقة سوانا.. والخوف طبعًا.. رجل وامرأة.. وثالثهما الخوف.....

* * *

جلسنا نشرب الشاي في الظلام..
الصمت واللهاث.. لا أكثر.....
ثم.. طاق طاق طاق!
اتسعت عينا (ماجي) في هلع.. ليتها تكف عن الذعر قليلًا.. إن منظر ذعرها لمخيف.. هذا أحدهم يقرع الباب في إصرار...
تصلب جسدي أنا الآخر.. وتحسست المسدس..
- «(رفعت).. لا تفتح! هل ستفتح؟»
همست وأنا أعود لاسترخائي:
- «يا سلام! وهل أنا مجنون؟ إن من يأتي ليزورني في الحادية عشرة مساء، وفي هذا

الظلام الدامس، لن يخرج عن كونه قاتلًا أو لصًا أو شخصًا يبلغني بكارثة.. كلها أسباب لا تغريني بفتح الباب..»
وابتسمت قائلًا وأنا أرشف الشاي:
- «أنا هنا وأنت هنا.. وأبي وأمي ماتا ولن أقلق عليهما ثانية.. يعني هذا أن العالم الخارجي لا يعنيني في شيء.. فلتزأر العاصفة كما يقول (بوذا)..»
هنا عادت القرعات أقوى.. طاق طاق طاق!.
إنه مُصِرّ!
ينوي ألا ينصرف قبل أن يحطم جهازنا العصبي.
طاق طاق طاق!
ثم صوت فتاة متحشرج:

- «د. (رفعت).. أرجوك.. هل أنت هنا؟»

فتاة؟ من هي؟

- «أنا (نجلاء) ابنة الأستاذ (زكريا).. أرجوك.. لو كنت هنا افتح لي!»

(نجلاء) على الباب؟ وفي حالة هستيرية؟ لا بد أن أباها قد مات.. أو هو عاكف على الموت بنجاح تام..

كدت أنهض لأستوثق من الأمر، لكنّ يد (ماجي) تشبثت بي:

- «لا.. لا تذهب.. إنها خدعة!»

نعم.. أنا كذلك ميال إلى كونها خدعة ما.. فقصص الحمقى الذين فتحوا الأبواب وما كان ينبغي أن يفتحوها تفعم ذهني..

لكن الصوت يواصل النداء:

ـ «د. (رفعت)! أرجوك.. إن أبي لا ينطق.. أرجوك...»

هنا صار الأمر أقوى من قدرتي على التحمل... فنهضت..

بالطبع لا أريد أن أترك (ماجي) في الظلام وحيدة.. لكني سأجد عذرًا لا بأس به في تفسير وجودها في شقتي.. لهذا أنا مضطر..

- «هـ.. هل ستتركني؟».

- «إن الرجل يموت يا (ماجي).. سأرى ما هنالك ثم أعود لك.. لن يستغرق الأمر دقائق..»

- «أنت أحمق..»

ـ «ربما.. لكني طبيب كذلك.. طبيب أحمق إذا أردت.. ولا أجد مخرجًا من هذا

العيب الخلقي..»
وحملت حقيبتي - تركت المسدس لـ (ماجي) طبعًا - ولحقت بـ (نجلاء) التي وقفت على بابي مشعثة مولولة باكية منهارة مهزوزة ممتقعة.. الخ.. كانت تحمل مصباحًا صغيرًا.. وسألتني في رعب:

- «لِمَ لم ترد على مادمت هنا؟»
- «كنت نائمًا أو شبه نائم.. هيا بنا....»

* * *

على ضوء الشموع والمصابيح يغدو الأمر أقرب إلى الكوابيس...

لكن الحالة حالة نزف مخي.. يمكن لكل طفل تمييزها.. لا يوجد ما يمكن عمله في

المنزل سوى شيء واحد فقط.. لا بد من نقله إلى المستشفى لأن حالته أخطر مما ظننت..

وجوه نسائية مذعورة تحيطني في ضوء الشموع.. والأسئلة الغبية المعتادة:

- «هل هي حالة خطرة؟ هل سيُشفى؟ لنحاول علاجه في الدار.. لم لا؟ هل السبب هو أكله القنبيط على الغداء؟»

فقط الزوجة كانت أذكى من سواها... هرعت إلى الهاتف وطلبت الإسعاف.. ثم قالت لي مناشدة:

- «طبعًا ستكون معنا هناك يا د. (رفعت)؟!»

- «ط.. طبعًا!»

- «نحن لن نعطلك.. أليس كذلك؟!»

- «نـ.. نعم!»

طبعًا لا جدوى من أن أقنعهم أن قدومي معهم لن يفيد بشيء.. لكنه التعاطف.. لابد من إظهاره والويل لك إن تنصلت من الأمر بأعذار لن تقبل..

ولكن (ماجي).. لا بد من إبلاغ هذه البائسة.. هل آخذها معي؟ مستحيل هل أناديها لتمضي الساعات الباقية هنا؟ مستحيل.. إذن لا مفر من الذهاب معهم.. ولآمل أن تستقر الأوضاع سريعًا....

* * *

استغرق الأمر ساعتين لحسن الحظ..

ساعتين حتى استقر الرجل في أحد أسرة العناية المركزة، وقاموا بتركيب (المانيتول) وحقن (اللازكس) وكل ما من شأنه أن ينزع المياه من حوض (الأمازون) ذاته...

يبدو أنه سيعيش.. سيمر بأيام كئيبة في البدء.. ثم يتحسن تدريجيًا.

والآن حان وقت الفرار.. والانتقال من دور د.(كوخ) إلى دور (شيرلوك هولمز).. فهناك آنسة مهددة بالقتل في داري..

عدت إلى الدار بعد نصف ساعة أخرى..

كان التيار الكهربائي قد عاد كضيف طال الشوق اليه..

صعدت إلى شقتي وفتحت الباب..

كان جهاز التلفزيون يعمل عارضًا فيلم السهرة الأمريكي.. وكانت بقايا الشمعة قد تلاشت تمامًا وتحولت إلى عجينة بلا معالم.. وكان قدحا الشاي الفارغان على المنضدة.. مع تفاصيل أخرى من التي لا تلاحظها في الظلام...

لكن (موكلتي الحسناء) لم تكن هناك...

تلاشت (ماجي) تمامًا من المشهد..

هرعت ـ وقلبي يخفق - أبحث عنها في الحجرات كلها..

ليست هنا.. ولا هنا.. هل تكون قد؟

أخيرا وجدتها في حجرة المكتب.. كانت جالسة على البساط.. وقد تدلت سماعة الهاتف جوارها تتأرجح..

كانت دامعة العينين ذاهلة.. تنظر إلى قدميها في إصرار..

جلست على البساط جوارها، وسألتها في رفق عن......

- «لقد اتصل بي!»

- «من؟ الرجل إياه؟!»

- «نعم... قال لي: واحد ولا ثاني له.. تعرفين عن السابع بعد يوم! وأغلق الخط قبل أن أقول كلمة واحدة..»

نظرت لها في ذهول:

- «ولكن هذا معناه.....»

- «معناه أنني لم أكن الضحيّة السادسة.. ومعناه أنه يعرف يقينًا أنني هنا!»

* * *

# ٧ ـ الضحيّة السابعة..

أسطورتها.. أنها أذكى النساء..

* * *

توجهنا معًا في الصباح لنتصل بإنجلترا..

لا داعي لإهانة ذكاء القارئ بقول إننا لم ننم لحظة تلك الليلة.. ظللنا جالسين على الأرائك نتبادل النظرات الحيرى.. بضع دقائق يغفو فيها أحدنا ثم يصحو مذعورًا.. فيغمغم شيئًا.. ويعتدل في جلسته من جديد.. وقد بدا لنا ضوء الفجر بشرى بالخلاص..

هذا هو حظي.. ليلة كاملة مع (ماجي) في مكان واحد.. لكنّها من أسود ليالي حياتي وأقساها..

دخلت كابينة الهاتف وراحت تتكلم.. أمّا أنا فاسندت رأسي إلى الزجاج ونمت قليلًا وأنا واقف.. ولم أدر أنني فعلت ذلك..

لم أصحُ إلا حين شعرت بها تجذب معصمي برفق..

- «هيا بنا..»

وأردفت وهي تتقدمني إلى باب الخروج:

- «أنت مرهق حقًّا يا مسكين..»

- «أنت كذلك.. لكنك تجيدين إخفاء ضعفك..»

قالت وهي تركب السيارة إلى جواري:

- «اتصلت بالمفتش (جيرهارد).. أخبرته بما دار في المكالمة الهاتفية الأخيرة.. أخبرني بخبر كنت أتوقعه..»

قلت لها وأنا أنقل ذراع السرعات:

- «(اليزابيث) قد ماتت أمس..»

ابتسمت في خبث.. وقالت:

- «بل (ماري كلفورد).. هل تذكرها؟ إن (ماري) جديرة بأن تكون من شلتي.. لقد نسيناها تمامًا.. لكنّها كانت جزءًا أساسيًا من مجموعتنا.. بل إن (اليزابيث) كانت زميلة لنا أكثر منها صديقة.. هكذا.. إن القاتل يعرف شلتي خيرًا مني..»

سألتها وأنا أحاول ألا تلتقي عينانا:

- «وكيف قتلت؟ بالرصاص أم رميًا من حالق؟»

- «صعقًا بالكهرباء.. سلكان عاريان في بانيو الحمام المليء.. وهي فيه طبعًا.. إن الوغد لا ينقصه الخيال..»

ثم اتسعت عيناها ذعرًا ونظرت لي.. وهتفت:

- «هل تدرك معنى ذلك؟ لقد كان القاتل في انجلترا معها.. إذن من هو الذي يلاحقني هنا بالمكالمات الهاتفية ورسائل التهديد؟ إن (أندرو) يملك الآن حجة غياب لا بأس بها.. لا يمكن لأية محكمة أن تدينه بقتل (ماري)..»

- «ماذا تريدين قوله؟»

- «ما فهمته أنت.. إن القاتل يصل إلى ضحيته في الوقت الذي يريده وبالكيفية التي يريدها.. يصل إليها في اليابان أو

انجلترا أو اليونان أو مصر.. يتواجد في بلدين في الوقت ذاته.. إن قاتلًا بهذه الصفات لا يمكن أن يكون من عالمنا.. إنّه صياد كوني إذا صح التعبير!»

وأسندت جبهتها إلى راحتها.. وهمست:

- «واليوم أكون أنا خاتمة هذا المسلسل الرهيب!»

* * *

كان قراري سريعًا....

قمت ببعض حركات مناورة لأضلل من يمكن أن يتبعنا بسيارة.. وحين تأكدت أن أحدًا ليس في أثري - على الأقل من البشر

- ملأت خزان السيارة بنزينًا.. وانطلقت في اتجاه الخروج من القاهرة..

إن شقتي قد صارت معروفة لكل قتلة العالم كما يبدو.. إذن تبقى قريتي (كفر بدر) هي أنسب مكان أداري فيه (ماجي)..

إن الأوضاع تنعكس....

منذ أعوام خرجت من (كفر بدر) لأخبئ في شقتي كاهنًا من التبت اسمه (هن - تشو - كان).. واليوم أفعل العكس تمامًا لأداري في قريتي حسناء إسكتلندية بائسة اسمها (ماجي ماكيلوب)..

إن الطريق طويل مرهق..

لكن (ماجي) لم تتكلم..

لم أستطع أن أصارحها بأنني أشكر الظروف التي جعلتني ملاذها الأوحد في

العالم... للمرة الأولى تحتاج إليّ (ماجي) بقدر ما احتجت إليها طيلة حياتي..

لقد أفسدت (ماجي) حياتي تمامًا.. صورتها تطاردني كلما بدأت مشروع زواج أو خطبة.. وكنت أحاول أن أتحرر من إسارها لكنّها كانت تملك كل حواسي وأفكاري.. عندها كان كل شيء يتحطم..

أجرؤ على القول إن (ماجي) هي سبب سخريتي اللاذعة وسرعة مللي.. لأنني لا أجد ذكاءها وتجددها في الكون من حولي، إن (ماجي) هي سبب كآبتي وتوحدي.. وسبب شرودي وتوتري..

كان علماء النفس يقولون دومًا إن ارتباط الطفل الزائد بأمه؛ يسبب فشله في أية علاقات مع الجنس الآخر حين يكبر.. وقد

كانت (ماجي) أمًا لي.. أمًا وأختا وصديقةً وحبيبةً.. وغدا من المستحيلات أن أجد سواها.. لأنّه لا توجد سوى واحدة فقط..

إن (ماجي) هي الداء والدواء معًا...

وها هي ذي الآن بحاجة إليّ.. بل هي في أعمق أعماق عالمي.. رأت شقتي.. وتوشك أن ترى أختي وأخي وقريتي..

كل هذا حلم.. حلم جميل.. حتى لو صحوت منه على صوت طلقات الرصاص... فموت (ماجي) لا يقلقني لأني ـ حتمًا ـ سأموت قبلها..

أعرف هذا وأومن به.......

قالت لي وهي ترمق الطريق:

- «فيم تفكر؟»

قلت وأنا أنظر لها بجانب عيني:

- «أفكر في أنه لا يفصلني عن السعادة سوى اثنين وثلاثين سنتيمترًا!»

مدت يدها وقاست المسافة الفاصلة بيننا.. وغمغمت:

- «بل أربعين سنتيمترًا.. إن حساباتك خاطئة دومًا..»

هكذا فهمت دعابتي وردت عليها بهذه السرعة النوويّة..

يا ملاكي الصغير..

لن أحتمل أن يحدث لك شيء.. لن أحتمل...

* * *

هو ذا بيتنا الطيني بالقرية....

نزلت من السيارة، وتجاهلت بعض النسوة اللواتي جلسن أمام ديارهن ينقين الأرز ويتأملنني في فضول..

- «(رئيفة)!»

صحت مناديًا أختي.. وانحنيت ألثم الأطفال الذين التفوا حولي.. فأنا خالهم.. خالهم الذي نسى للأسف أن يجلب لهم شيئًا.. لم يكن الوقت ولا المزاج يسمحان به.....

- «خالي جاء يا أمّه!»

ورأيت (رئيفة) الحبيبة برقتها وجمالها تهرع نحوي لتعانقني.. لثمت يدي فلثمت يديها. يدها الطيبة التي رائحتها مزيج من العجين والثوم والبصل والسمن واللبن الرائب.. رائحة داري.. رائحة الحب..

- «لم تقل لي.. إن (طلعت)...»
- «لا عليك.. إنني لست وحدي.. مع فتاة إنجليزية.. ضيفة.. أعني أنها بحاجة إلى حماية و...»
إن تفسير الأمر معقد جدًا.. ورأيت (رئيفة) تحاول أن تفهم.. لكنّها لم تستطع.. لم أكن أنوي البقاء مع (ماجي) في القرية حتى لا يكثر القيل والقال.. كنت أعرف أن (رئيفة) ستحسن العناية بها وحمايتها.. وما لم يكن القاتل من عالم آخر ـ كما بدأت أشك ـ فمن المستحيل على إنسان أن يعرف أن (ماجي) هنا...
- «(رفعت).. هل هي تلك (الخواجاية) التي كنت تنوي الزواج منها؟ لقد بكت أمي

أيامها دمًا بدلًا من الدموع.. أرجوك يا (رفعت).. إن بنات بلدك أولى بك..»
يا لك من ساذجة رقيقة! لثمت خدها وقلت:
- «لا شيء مما تظنين.. كل ما هنالك أنها أمانة أتمنى لو حافظت عليها ثلاثة أو أربعة أيام..»
ثم إنني تركتها واقفة حيث هي، وخرجت من الدار لأحضر (ماجي) من السيارة..
لكنها كانت قد غادرت السيارة بالفعل..
وقفت تتأمل أسرة من البط تلهو حول بقعة من الماء الآسن.. وكان البط يرمقها في دهشة عاجزًا عن فهم سر فضول هذه السائحة الشقراء..

وحول (ماجي) رأيت مظاهرة صغيرة.. قوامها الأطفال وعمادها النسوة الفضوليات بأعينهن اللواتي تقطر سمًا وكراهية لا مبرر لهما.. وراح الأطفال يرددون في إيقاع لا بأس به:

- «(الخواجاية) أهيه! (الخواجاية) أهيه!»

وراح غيرهم يتقاطر من الأزقة المجاورة.. وحتّى ذلك الفتى الذي كان مارًا مسرعًا على حماره، توقف وترجل ليرى هذا السيرك عن كثب، ولم أكن أنا في حاجة إلى هذا الاستعراض..

جررتها من ذراعها.. وهي تداعب الأطفال بحركات مضحكة من وجهها..

جررتها إلى داخل الدار.. وواربت الباب الثقيل..

- «(رفعت).. إنهم ظرفاء حقًّا!»

- «إنهم يعتبرونك عرضًا من عروض السيرك.. الرجل الفيل.. المرأة التمساح.. الفتاة الإسكتلندية الشقراء.. ولو أنني تقاضيت قرشًا من كل إنسان يراك لصرت ثريًا..»

وقفت أمام (رئيفة).. امرأتان متقاربتا السن.. لكنهما من ثقافتين متباعدتين تمامًا..

- «(ماجي) هذه (رئيفة) أختي»

قلتها بالإنجليزية..

- «(رئيفة).. هذه هي (ماجي)..»

قلتها بالعربية؟

- «(ماجي)؟»

سألتني (رئيفة) مستوثقة وهي تجفف يديها في خرقة.. وتتأمل ثياب (ماجي) في انبهار.. أخبرتها أن الاسم هو (ماجي)..

- «والنبي حلوة!»

ومدت يدها تصافحها.. ولثمتها على خديها.. (ماجي) تبدو مندهشة لأسلوب التحية هذا.. لكنّها تقبلته في تواضع..

سألتني (رئيفة) وهي تقودنا إلى الداخل:

- «وكيف سأكلمها؟»

- «كل لبيب بالإشارة يفهم يا (رئيفة).. إنها ذكية وكذلك أنت.. ثم إن ابنتك (أحلام) في الصف الثالث الإعدادي.. يمكنها أن تفهم الكثير وتقول لها الكثير..»

- «ليكن..»

وصمتت هنيهة تبحث عن المعضلة التالية.. ثم سألتني:

- «وأين تقيم؟»

- «يا له من سؤال! حجرتي طبعًا.. لقد تركتها منذ زمن طويل وأعتقد أن البراغيث لم تعد تقيم في الفراش أكثر بعد رحيلي... ثم إنها ستسعد بكل ما تراه هنا.. تأكدي من هذا...»

ثم أرجو ألا تضعي الكثير من السمن في الطعام يا (رئيفة) حتى لا يفتك بها الإسهال.. سأعود بعد ثلاثة أيام على الأكثر.. هل تريدين شيئًا آخر؟ آه! هاك ما يلزم من مال لاستضافتها.. هيه! ألن تأخذيه؟

كانت ترمق يدي الممدودة بحفنة أوراق مالية في حياء.. وغمغمت وهي تدير وجهها:

- «عيب يا (رفعت) يا أخي.. خيرك سابق..»

دسست النقود في يدها قصرًا، قائلًا بنفاد صبر:

- «لا وقت للشهامة يا (رئيفة).. إن صلة الرحم لا ترغمك على استضافة الإسكتلنديات المذعورات.. المهم أنني لن أوصيك.. لا تدعيها ترغب في شيء أو تشته شيئًا.. وسلامي لـ (طلعت)..»

ونظرت لـ (ماجي).. نظرة سريعة لكنّها تقول كل شيء..

- «سأعود بعد ثلاثة أيام أو أقل..»

- «للأبد؟»
- «ماذا؟»
- «ستظل تحبني للأبد؟»
- «.. وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى....»

كاد الدمع يغلبني فهرعت لأركب سيارتي، عائدًا إلى القاهرة....

* * *

عدت إلى شقتي أخيرًا....

كانت السادسة مساء حين أولجت المفتاح في الباب..

مازال عطرها يفعم المكان.. والكتب التي كانت تطالعها مفتوحة على صفحات متناثرة...

لم أصدق أن كل هذا حقيقي.. إنني أعيش أروع أيام حياتي وأفظعها! أليس هذا غريبًا؟

على كل حال لم يبق لي سوى أن أبقي أصابعي متقاطعة - كما يقول الإنجليز - وأن أنتظر الليل.. لعل اليوم ينتهي في سلام...

قد ينتهي اليوم بمصرع (إليزابيث).. لكنه لن ينتهي بمصرع (ماجي).. من العسير نوعًا أن يجدها القاتل ما لم يكن شبحًا....

قررت أن أبدأ بإعادة الكتب إلى مكانها.. والأقداح التي....

عجبًا.. كان هناك قدحان على هذه المنضدة اتسخا ببقايا الشاي.. الآن يوجد

قدح واحد متسخ.. والآخر به ماء.. بقايا ماء..

(ماجي) لم تفعل هذا.. كانت تنهض إلى المطبخ لتشرب مباشرة من زجاجة في الثلاجة..

يوجد عقب لفافة تبغ غير مألوفة لي.. أراه مدفونًا في منفضة الرماد هذه وأعرف أنني لست صاحبه ولا (ماجي)..

لفافة تبغ لها شريط ذهبي أنيق...

أحدهم كان هنا...

أحدهم دخن لفافة تبغ.. وبحث عن كوب يشرب فيه الماء فلم يجد لأن الأكواب صنف منقرض في شقتي.. وهذا اضطره أن يغسل أحد قدحي الشاي ليشرب منه..

أحدهم كان هنا...

كان هنا؟ ربما مازال هنا.....
ثمة دلائل ترجح الاحتمال الأخير بالنسبة لي......
إن رماد لفافة التبغ ما زال دافئًا**!**

❋ ❋ ❋

# ٨ - السقوط.. السباك وأشياء أخرى!

أسطورتها.. أنها لا تشيخ أبدًا..

* * *

هذه المرّة لن ألعب دور رجل العمليات الخاصّة في فيلمٍ أمريكي رديء.. إن في هذه الشقة قاتلًا ينتظر.. صحيح أن المسدس معي.. لكنك تحتاج كي تقتل إلى ما هو أهم من أداة للقتل.. تحتاج إلى إرادة القتل..

أنا لم أطلق الرصاص قط على شخص ينظر في عيني.. ولا أعتقد أنني سأفعل.. ولولا الخطر الداهم الذي أحاط بـ (ماجي)؛ لما كنت قد فجرت زجاجة الحمض الحارق في وجه (أنفريد) عند بحيرة (لوخ نس)..

إذن يبقى حل واحد صائب...

التراجع ببطء إلى الباب.. فتحه... الخروج إلى السلم.. الصراخ أو استدعاء الشرطة.. المهم ألا أكون وحيدًا...

ببطء تراجعت إلى الباب، وأنا أنظر يمينًا ويسارًا..

هل يأتي من ردهة المطبخ؟ أم يخرج من وراء الأريكة؟ أم يثب من باب غرفة النوم الموصدة؟

هل سيبدأ إطلاق الرصاص.. أو يقول شيئًا ما على غرار: لقد وقعت!؟ هل سيعطيني فرصة كي أفتح الباب؟

لا يوجد ما يوحي بالحركة.. هل أنا مخطئ؟

لا.. حاستي تقول إنّه هنا.. وتقول لي كذلك: أرجوك أن تسرع بالفرار.. بحق كل غال لديك حاول أن تسرع!

لكنّ الركض سيصيبني بالهلع..

لا أريد أن أفقد تعقلي..

ها هي ذي يدي على (الكالون).. أفتحه.. يالك من صاحب لعين! الباب مفتوح الآن..

دلفت إلى الردهة المظلمة خارج الباب، وأغلقته في تؤدة.. ثم.. عليّ الآن أن أصرخ أو أركض إلى الشارع..

لكن.. لماذا لا أغلق الباب بالمفتاح من الخارج، وأترك المفتاح في ثقبه؟ إن هذا سيعطله حتمًا..

من الصعب على هذا الدخيل أن يهرب من الشرفة أو النافذة.. ليس أمامه سوى الباب.. ولسوف يجعله هذا في مأزق حقيقي.. هي هي!.

وانحنيت على ثقب الباب أدفن مفتاحي فيه.. حين..

❋ ❋ ❋

يا للهول!.

ذراعان قويتان تحملانني من تحت إبطي.. وصوت لهاث..

سقط المسدس على الأرض.. وغاب في الظلام...

لقد.. لقد كان هناك.. خارج الشقة لا داخلها.. بانتظار فراري المذعور.. وهأنذا قد وقعت في الشرك..

حاولت التملص لكنه كان قويًا حقًّا..

إنه يقودني إلى (الترابزين).. وقبل أن أفهم وجدت جذعي كله يتدلى فوق الحاجز.. مع محاولات مستميتة لإلقائي من عل..

رأيت عويناتي تهوى من فوق.. استغرقت دهورًا حتى لمست بئر السلم وسمعت صوت تهشمها..

يده تعالج ساقي محاولة رفعها..

لكني لست من هذا النوع الذي يتخلى عن أي شيء في يده.. أمسك ياقة سترته بمخالبي.. وأنشبت أظفاري في ذراعه..
كان تقلصًا كالتصلب الرمي في الجثث.. لا يمكن التغلب عليه إلا بقطع يدي.. وسمعت الرجل يسب ويلهث بالإنجليزية.. كيف يلهث الناس بالإنجليزية؟ لا أدري.. ولا وقت لديَّ كي....
أفسّر!
تماسك يا (رفعت).. لا تفقد الوعي.. لن يتمكّن منك طالما أنت بكامل وعيك.. لا تغب عن الوعي...
شعرت به يضربني على رأسي بقبضته محاولًا جعلي أفقد صوابي.. انحنيت مبتعدًا

عن قبضته.. ورحت أصرخ بصوت مبحوح:

- «(عزاات)! النجدة.. فليأت أحدكم!»

يا للظلام المقيت! إنني..

لحظة ضعف واهية.. لكنّها كانت كافية جدًّا...

وحين تخلت يدي عن ثيابه.. شعرت بأنني أفقد توازني.. وأن ما تحت قدمي هو الخواء.. الخواء لا أكثر..

لقد استطاع أن يلقيني من حالق!

حتى وأنا أسقط لم أتخل عن عادتي في الملاحظة..

خطر لي أن أفلام السينما تخرف حين تظهر شخصًا يهوى من أعلى، وهو يملأ الدنيا صراخًا ويحرك يديه في كل اتجاه..

بالنسبة لي كان غرابة ما أراه كافيًا كي أظل صامتًا.. وأهوى كجلمود صخر خطة السيل من عل..

و.. فقدت الوعي طبعًا.. لقد حان الوقت لهذا..

❋ ❋ ❋

كانت هناك ضوضاء غير عادية، ويد باردة على معصمي تحاول قياس النبض.. والضوء.. كل هذا الضوء..

يقول الرجل ذو العوينات والشعر الأشيب:

- «إنّه بخير... لقد عاد النبض منتظمًا..»

ويقول الشاب الوسيم الذي يرتدي الثياب الرسمية:

- «هل رأيت من قذفك من أعلى؟»

ويقول جارى اللواء (محمد حليم) ويداه في جيبي الروب الصوفي:

- «لا بأس عليك.. أنت مدين لنا بنجاتك..»

وبدأت افهم..



ياللهول ! .. ذراعان قويتان تحملاننى من تحت إبطى ..
وصوت لهاث ! ..

كان اللواء (حليم) عاكفًا على استبدال مواسير الماء في شقته.. لهذا ترك السباك عشر مواسير تطل نهاياتها حرة من فوق (الترابزين).. ولم يخطر بباله أنّ هناك من يمكن أن يسقط في بئر السلم بعد نصف ساعة.. كان بوسع أطراف المواسير هذه أن تعمل في جسدي ما تعمله الرماح في خيول المغول.. لكنها أنقذتني لأنّها اشتبكت في سترتي.. وصرت معلقًا منها كالأرنب..

هنا بلغت الضوضاء ذروتها، وغادر السكان شققهم ليروا.. ليروا الكهل (رفعت إسماعيل) معلقًا من قفاه في بئر السلم غائبًا عن الوعي... لقد كان منظرًا مهينًا حقًّا.. ربما كنت أفضل الموت عليه..

الأهم هو أنهم رأوا من يثب الدرجات وثبًا في الطابق السفلي ليغادر البناية.. ولم يكن لدى أحدهم الوقت لمطاردته...

تمكن السباك ببراعة من ربط جسدي بالحبال... وجذبني مع صبيه إلى مرفأ الأمان.. لابد أن المشهد كان شائقًا..

لشد ما أمقت جذب الانتباه، أو لفت الأنظار! كانت أمنيتي الدائمة هي الموت دون ضوضاء على فراشي.. فلا أحب أن يتحول موتي إلى استعراض من استعراضات (برودواي) يراقبه كل من هب ودب.. ولا بأس من اصطحاب الأطفال، وقزقزة اللب والفول السوداني..

شكرت الجميع على حسن أدائهم...

وقلت لمحقق الشرطة.. إنني لا أعرف.. (لا أعرف) هذه كانت إجابتي على سبعة أسئلة أو أكثر..

سألني في حنق وقد فاض به:

- «إذن أنت تعتقد أن الرجل رماك من أعلى السلم لأنّه يحبّ ذلك؟»

قلت له وأنا أحاول النهوض:

- «إن للناس هوايات غريبة.. وعلى كل حال هو أدرى بالسبب..»

- «حسن.. لكننا نريدك غدًا يا دكتور لنستأنف هذه المحادثة.. إذا كانت حالتك تسمح طبعًا..»

وصعدت إلى شقتي.. ولم أنس بالطبع أن أجعل رجال الشرطة يفتشونها بعناية أولًا.. ثم أغلقت بابي بإحكام وأوصدت المزلاج..

كنت في حالة يرثي لها.. بذلتي تمزقت.. بذلتي التي اشتريتها خصيصًا للقاء (ماجي).. ومنظاري تهشّم.. يعني هذا غرامة مالية لا بأس بها هذا بالطبع لو استطعت الوصول إلى محل المناظير..

إن أجلي لم يحن بعد.. هذا هو كل شيء....

أجلى لم يحن بعد.. لسوء حظ القاتل.....

نزعت ثيابي.. ارتميت على الأريكة.. رحت ألهث والمشهد يتوالى أمام عيني مرارًا.. نهضت.. تناولت قرص (النتروجلسرين) إياه..

أين مسدسي؟ لقد سقط مني عند الباب حين.. لا جدوى من البحث عنه طبعًا.. فلا بد أن رجال الشرطة وجدوه.. أو وجده

القاتل.. لا يهم.. لن أغادر الشقة مرّة أخرى....

وعادت خواطري تتدفق...

لقد قارفت خطأ مميتًا.. افترضت أن سلسلة القتل تتعلق بشلة (ماجي).. ونسيت أنني من شلة (ماجي)!

افترضت أن القاتل يريد الإنجليز فقط.. ونسيت أننا لو أحصينا سبعة من أصدقاء (ماجي) فلا بد أن أكون منهم.. ولو أحصينا خمسة فأنا منهم.. ولو أحصينا واحدًا فأنا هو!

كُنت أنا السابع..

لهذا تسلل الرجل إلى داري.. وعرف رقم هاتفي.. وترك لي إنذارًا.. لكني حسبت كل هذا موجهًا إلى (ماجي)..

الآن يمكنني أن أطمئن وأقر عينًا..
أنا السابع.. فلا خطر على صغيرتي الشقراء الهشة..
لكن اليوم لم ينته بعد.. إنها العاشرة مساء.
فهل يجرؤ الرجل على إعادة المحاولة؟ هل يقدر؟ لا أظن..
المهم الآن أن أتصل بـ (كفر بدر) لأخبر (ماجي).. ولكن كيف؟ إن الاتصال بالقرية يستغرق وقتًا ومجهودًا يفوقان ما أبذله لو مشيت على قدمي إلى القرية لأبلغ رسالتي شفويًا..
عدت أسترخي في جلستي وحاولت ترتيب أفكاري..
من هو القاتل؟ مستحيل أن أعرف ذلك.. لكنه قادر على التواجد في مصر وإنجلترا

في وقت واحد.. أي إنّه إنسان فريد من نوعه وموهوب دون شك.. كنت أفكر وأنا أبحث عن العوينات الاحتياطية التي أحتفظ بها.. ها هي ذي..

أنا من شلة (ماجي).. فما الذي فعلته هذه الشلة ويوجب القتل؟ ولماذا تمحور القتل حول (ماجي)؟ يريد القاتل حرمانها ممن تحب - فهل يرى أنها حرمته ممن يحبّ؟

ثمة ذكرى معينة غير واضحة تتردد في ذهني..

ما هي؟ كأنك تحاول استرجاع لحن أغنية نسيتها تمامًا.. كلما حاولت استرجاعها زارك لحن أغنية أخرى..

اسكتلندا.. شلتنا.. كان هذا منذ خمسة عشر عامًا..

ما الذي حدث وقتها؟
وهنا بدأت أتذكر..
هرعت إلى المطبخ، ورحت أجول فيه..
أحاول أن أشحذ خلايا مخي..
وبدأت الرؤى تتداعى..

*    *    *

# ٩ - عندما أخطأنا..

أسطورتها.. أن لها رائحة الكون..

* * *

ليلة الكريسماس...
كنا جميعًا هناك في (إدنبرة).. أنا و(ماجي) و(تابيثا) و(هيلين) و(ريتشارد) و(جون) و(ألفرد) و(ماري)..
راحوا يرددون أغنيات عيد الميلاد.. (تابيثا) بوجهها القبيح الشبيه بوجه كلاب (البولدوج) تبعثر دعاباتها المرحة هنا وهناك.. (هلين) ثقيلة الظل ترمق ما يحدث

في سخرية صامتة.. (جون) يتابع دعاباتنا بوجه صاف وسيم ملىء بالرقة..

كان بعضهم ثملًا.. لكني رفضت في تهذيب أن أشاركهم لهوهم... إن عصير الليمون مشروب لا بأس به أبدًا.. و(ماجي) كذلك لم تشاركهم الشراب ويبدو أننا جلسنا جوار المدفأة بعض الوقت..

قالت لي وشعرها يلتهب بلون النيران:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستبقى معي للأبد؟»

- «.. وحتّى تحترق النجم كلها.. وحتّى...»

كان (جون) يدرس الطب مثلي.. (ماجي) و(ماري) تدرسان الفيزياء.. الحق أنني لا

أذكر دراسة (هيلين) و(تابيثا) جيدًا..
كانت مجموعة متباينة من العسير أن تفهم تجانسها... لكنّ (ماجي) هي من عرفني بهم ووجدت أنهم لا بأس بهم.. على الأقل كضريبة لا بد من دفعها كلما قابلت (ماجي)..
وبرغم مقتي للضوضاء والصخب؛ بدت لي الليلة غير عادية..
كنت أفضل أن أدخل فراشي لأندس تحت الأغطية الثقيلة، وأرتدي قلنسوتي الصوفية.. وأقرأ قليلًا ثم أنام كالدب..
لكن وجود (ماجي) كان يعني أن أغير خططي كلها...
كان الليل قد انتصف...
هنا صاح (ريتشارد) بلسان ملتو قليلًا:

- «هلموا نقمٍ برحلة في السيارة.. إن الليل مازال طفلاً..»
وتصاعدت الصيحات أن هيا بنا.. هيا بنا....
كانت سيارة (ماجي) بانتظارنا في الخارج.. وسط الأنوار المتألقة لأشجار أعياد الميلاد كانت تقف.. وقد ألصقت (ماجي) عليها بالقطن والورق المزركش صورة نصف مجسمة لـ (بابا نويل) أو (سانتا كلوز) كما يسمّونه هنا..
ولا أدري كيف احتشدنا داخل السيارة نحن الستة جوار (ماجي) التي جلست وراء عجلة القيادة.. ذكرني هذا بعربات الأجرة بين المحافظات في مصر بركابها السبعة...

صاح (ألفرد) بلسان أكثر التواء:
- «ولماذا لا أقود أنا؟»
في حزم قالت (ماجي) وهي تحاول تسخين المحرك:
- «لأنـهّا سيارتي يا (ألفرد).. ولأنك لا تعي ما تقول..»
كنت جالسًا جوار النافذة الأماميّة، وفي الوسط كانت (هيلين).. على حين احتشد الخمسة الآخرون في المقعد الخلفي، يصخبون ويحدثون ضوضاء كافية لإيقاظ مقابر (الغفير) كلها....
وانطلقت السيارة تئن بحملها....
- «فلنذهب إلى (جودفري)!»
- «إلى (جودفري).. إلى (جودفري)!»

سألت (ماجي) همسًا وأنا أميل خلف رأس (هيلين):
- «ما هو (جودفري) هذا؟»
قالت في لا مبالاة وهي تتابع الطريق بعينيها:
- «إنّه مكان يذهبون إليه!».
ثم نظرت إلى ساعتها في قلق.. وغمغمت:
- «إنها الواحدة إلا الثلث... سيقتلني أبي حتمًا.. سأدور بهؤلاء المخابيل دورة واحدة ثم أعود بهم..»
لكنّ الكلام سهل.....
الجليد يتساقط ببطء.. قطع من القطن الأبيض تلقيها السماء على جراح البشريّة.. ثم يزداد كثافة..

يبدو أن الطريق يتحول ببطء إلى اللون الأبيض الزلق...

شعرت بانبهار غير عادي.. كأنه حلم جميل.. السيارة الدافئة والبرد القارص بالخارج.. والظلام.. وكل شيء يختلف عما عرفته عن الكون..

إن الكون شبيه بـ (ماجي).. في كل لحظة يتضح أنه يملك شيئًا لم تكن تعرفه عنه.. دائمًا يملك أسرارًا لا يكشف عنها إلا في لحظة غير متوقعة..

الرؤية تغدو أكثر عسرًا..

الصخب يتعالى من المقعد الخلفي، و(هيلين) تقول شيئًا ما....

وهنا لمحنا الضوء..

الضوء المبهر الساطع قادمًا نحونا كشمس مخبولة..
فرملة عنيفة من (ماجي) قذفت بنا جميعًا للأمام... ثم محاولة لتعديل الاتجاه إلى اليسار..
لكن هذا مسستحيل..
الوهج المبهر قادم من كل صوب نحونا..
- «(ماجي)! انحرفي يمينًا!»
لااااااه!
لكنّ الموسيقا كانت تغطي على أصوات الصراخ..
صوت الفرامل المجنون.. تغوص سيارتنا في الثلج على جانب الطريق.. وتشق طريقها والصراخ وصوت الغناء المنبعث من الراديو:

«هلمي يا صغيرتي.. يمكننا أن نرقص (الروك)!»
الأشجار تتسابق في لهفة متنافسة على تحطيمنا..
«حين ترقصين (الروك).. أشعر بالجنون!»
(ماجي) تتحكم في السرعات والفرملة كما يتحكم (أبوللو) في عربة الشمس..
«(الروك) يا صغيرتي.. (الروك)!»
وأخيرًا تهمد العجلات، وتقف السيارة كوحش منهك يلتقط أنفاسه بعد صراع مرير..
- «اللعنة!» - يقولها (جون) - «كان قريبًا جدًّا..»
- «لا بد أن السائق الآخر مخمور..»

وترجلنا من السيارة.. وعلى الوهج الذي يضئ المنطقة عرفنا بوضوح أن السيارة الأخرى تحترق..

كانت مقلوبة.. النار تلتهمها في شراهة والدخان الأسود يتصاعد لعنان السماء.... شعلة من نوع خاص تضيء الظلام..

- «فلننقذ من بقي حيًّا!»

قالت (ماجي) في حزم وهي تشيح بوجهها:

- «لا داعي.. إن الانفجار آت لا ريب.. هكذا يحدث دائمًا في السينما..»

لكنّ شيئًا لم ينفجر.. ودنوت من كتلة الحديد المحترقة مع (ألفرد).. وتمكنا من فتح الباب الخلفي، ونجحنا في إخراج طفلين يولولان كانا في المقعد الخلفي..

لكنّ الجالسين في المقعد الأمامي كانا بعيدين عن متناول أيدينا.. ثم إن أي طفل كان يستطيع معرفة أنهما ماتا....

- «يا لها من مأساة!»

كانا توءمين جميلين.. قدرت أنهما في العاشرة من العمر.. وكانا يرتجفان ويبكيان.. لكننا أبعدناهما عن مسرح المأساة..

بعد قليل جاءت عربة الشرطة... جرى تحقيق سريع.. لم ينس الضابط أن يجعل (ماجي) تسير على خط رسمه على الأرض وذراعاها مفرودان.. كان يريد التأكد من أنها ليست مخمورة.. ولم تكن...

شهود العيان الذين كانوا وراءنا أجمعوا على أن السائق كان يسير في الطريق

المعاكس بسرعة جنونية.. واحد آخر من ضحايا الخمر على الطرق السريعة..

اسمه (نورمان ماكليود).. محاسب.. له زوجة وثلاثة أطفال.. طبعًا لا داعي للقول إن زوجته وطفلته ماتتا معه..

لقد كانت مأساة.. لكنّ لم يكن لنا ذنب فيها...

وأجري التحقيق.. وسألوا كل وحدًا منا عن ظروف الحادث.. ثم انتهى الأمر.. فلم يبق منه سوى ذكرى قاسية ظلت تزور (ماجي) عامًا كاملًا.. وجعلتها تبتلع عشرات من أقراص (الفاليوم)..

انتهى الأمر...

لكننا ارتكبنا جميعًا خطأ جسيمًا..

لم يحاول أحدنا معرفة مصير التوءمين.. أين ذهبا؟ ماذا فعلا وماذا ظنا بنا؟

لو أنهما حيان اليوم.. فمعنى هذا أنهما شابان ناضجان..

شابان حُرما ممن أحبّا.....

شابان يعرفان المتسبب في هذا الحرمان....

❋ ❋ ❋

لماذا لم يخطر لنا هذا الخاطر من قبل؟

لأننا لم نعتبر أننا مذنبون لحظة واحدة.. لكنّ من قال إن التوءمين اعتبرانا غير مذنبين حقًّا؟

إنها فكرة لا بأس بها.. لكنّها تحتاج إلى برهان...

يسهل على (سكوتلانديارد) معرفة مكان التوءمين الآن.. وبعدها سيكون كل شيء سلسًا كقطعة من الكعك..

يجب أن أتصل بـ (ماجي) فورًا....

هنا دق جرس الباب....

دق قلبي بذات الإيقاع.. كلا.. لن أفتح.. لكنّ لا مانع من التأكد من شخص القادم..

- «من؟»

قلتها بصوت بوليسي وأنا أقف وراء الباب..

وسمعت الصوت المألوف:

- «هذا أنا يا (رفعت)..»

- «(عزت)؟ ماذا تريد؟»

- «إنني قد وجدت مسدسك.. هلا فتحت الباب؟»

- «حسن.. لحظة واحدة..»

ومددت يدي إلى المزلاج أفتحه.. إن وجود المسدس معي يسرني حقًّا..

وكان هذا عملًا أحمق بالطبع..

* * *

# ١٠ - كشف الأوراق...

أسطورتها.. أنها تملك مفاتيح روحي

* * *

فتحت الباب لأرى وجه (عزت) الممتقع المألوف.. وكدت أقول شيئًا.. لكنّ جسدًا ضخمًا ظهر على المسرح فجأة.. وكان يحمل مسدسًا في يده..

أدركت أنه كان يقف بعيدًا بانتظار لحظة انفتاح الباب..

ورأيت المسدس مصوبًا إليّ قبل أن أرى حامله وقال قائل بالعربية:

- «لحظة يا سيدي.. لا تحاول غلق الباب!»

لن أغلقه طبعًا.. فمن الممكن دائمًا اختراقه بطلقة.. كما أنني لن أترك (عزت) وحيدًا في هذا الموقف..

ورأيت الرجل يقتاد (عزت) إلى الداخل.. ثم يتبعه ويوصد الباب خلفه بإحكام..

قال (عزت) في إحباط وهو ينظر إلى الأرض:

- «لقد أرغمني يا (رفعت).. هددني بالمسدس كي أقرع بابك وأقول ما أقول..»

- «لا عليك يا (عزت).. إنّه أسلوب اقتحام الحصون العتيد.. أسلوب حصان طروادة... لكني معجب بإجادة هذا الوغد للعربية..»

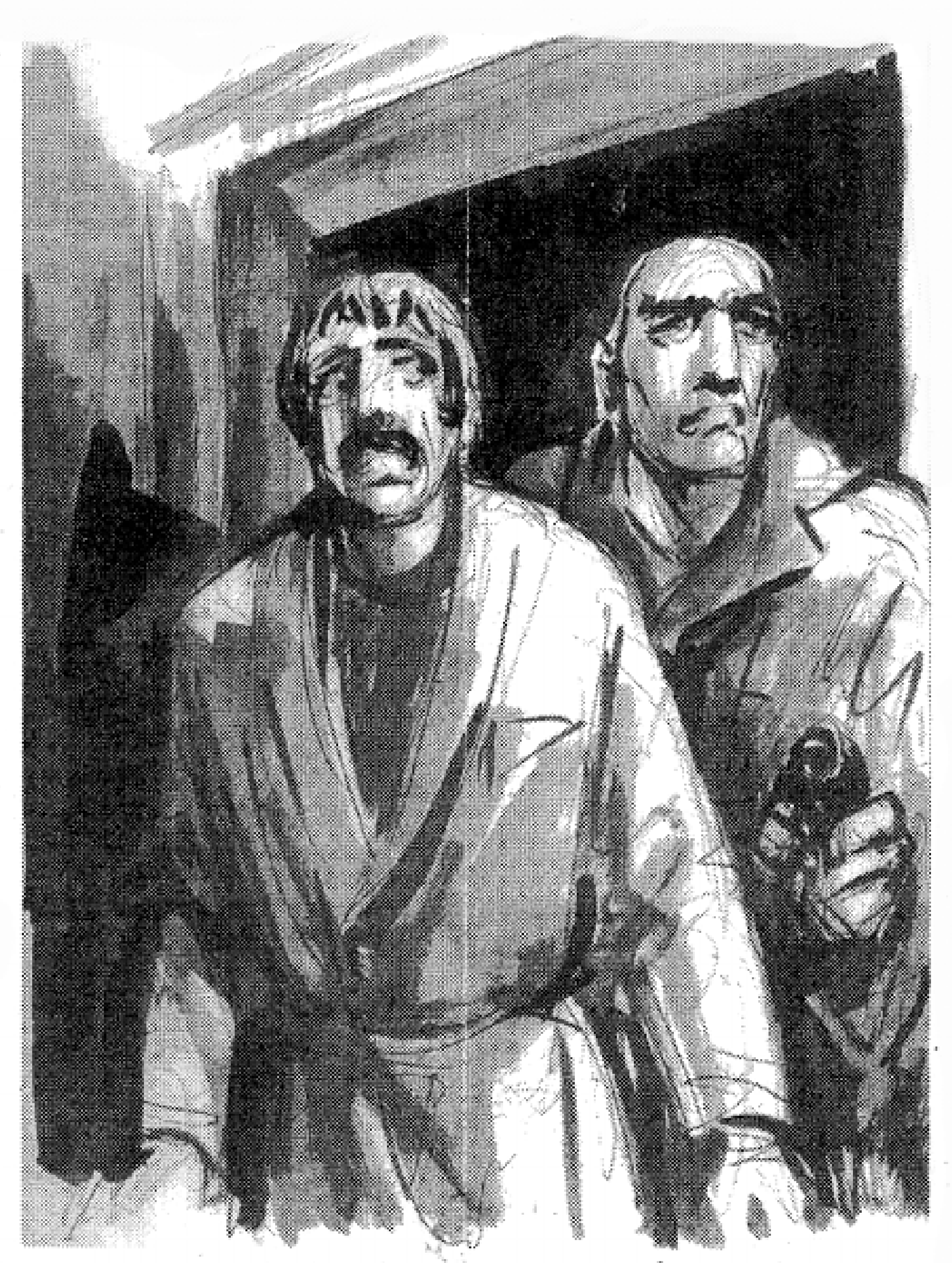
ثم أشرت إلى الأرائك أدعوهما للجلوس:

- «تفضلا بالجلوس.. لا تقلق يا مستر (ماكليود).. إن تأخير قتلي نصف ساعة لن يضر بعدالتك الشعرية هذه!»

امتقع وجهه.. ونظر لي مدهوشًا..

لقد كنت على حق.. تأكدت الآن فقط من صحة نظريتي.. ولكم أكره أن أكون محقًا في كلّ مرّة لكنّ هذا هو قدري!

- «هـ.. هل تعرفني؟»
- «طبعًا.. إن (سكوتلانديارد) تعرف كل شيء عما حدث...»
وللمرة الأولى تأملته.. كان وسيمًا له ملامح رجولية قوية.. شعر رأسه حليق على خلاف الموضة الشائعة.. متين البنيان.. يوحي بأنه في العقد الرابع من العمر لا الثالث كما هو مفترض..
وفي يده مسدسي الذي سيجيد استعماله بالتأكيد... فهو يملك الرغبة والهواية.
قلت له وأنا أفكر في سبيل لكسب الوقت:
- «كيف عرفت أنني لم أمت؟»
- «رأيتك وأنت تهوى وتشتبك في المواسير.. لم يكن لديَّ وقت كاف



وكدت أقول شيئًا .. لكن جسدًا ضخمًا ظهر على المسرح فجأة .. وكان يحمل مسدسًا فى يده ..

لإسقاطك.. لهذا عدت..»
- «يبدو لي أنك مصمم على إنهاء الأمر اليوم..»
نظر إلى ساعة الحائط.. ثم لساعته.. وغمغم:
- «حقًّا.. أمامنا ثلث ساعة بعده نغدو - عمليًا - في الغد.»
هنا صاح (عزت) متوسلًا وهو ينهض من الأريكة:
- «هلا شرح لي أحد ما يحدث هنا؟ يبدو أنكما متعارفان تمامًا.. إذن اسمحا لي بالانصراف..»
- «اجلس يا سيدي..»
قالها الرجل في رزانة.. لكنّ معنى العبارة واضح جدًا.. فلم يجد (عزت) سوى

الجلوس وهو (يبرطم) بكلمات غير مسموعة..
كان صوت الرجل رخيمًا مهذبًا.. وكانت لغته العربيّة رديئة حقًّا من ناحية النطق.. لكنّها ممتازة من حيث انتقاء الكلمات وترابط الجمل..
- «يُمكنك استعمال الإنجليزية لو أردت..»
- «أفضل العربيّة.. فهي تجعل من محادثتنا تدريبًا شائقًا..»
- «وأين تعلمتها؟ لابد أنك قضيت فترة لا بأس بها في بلد عربي..»
- «بالتأكيد..»
قالها في غير اكتراث وهو يعالج ترباس المسدس... ثم أردف وهو يتأملنا:

- «لنبدأ إذن!»

* * *

قلت له في حنق بالإنجليزية:

- «لحظة! من أبسط حقوق المقتول أن يعرف لم قتل.. من الطبيعي أن تثرثر قليلًا وتتشفي فينا.. أمّا إن تقتلنا هكذا دون كلمة فهذا لايبدو لي إنسانيًا..»

ابتسم ابتسامة مدهوشة كأنما يتساءل: أى مخبول هذا.. ثم هزّ رأسه قائلًا:

- «هلمّ.. اسال عم تريد..»

كنت أدرك أن حياتنا تتوقف على كياستي في اللحظات القادمة..

لست من هذا الطراز هادئ الأعصاب أمام الخطر.. لكني كنت أعرف ما يطمئنني بصدد هذه اللحظات..

قلت له وأنا أتجه للمطبخ:

- «هل لي في إعداد بعض الشاي؟ إنك لم تقتلني لذلك..»

صوب المسدس نحوي في حيرة.. وغمغم:

- «لا.. اجلس حيث أنت!»

- «لا تكن طفلًا.. إنك الأقوى هنا.. فالعب دور (الجنتلمان) حتى النهاية..»

قلتها وأنا أضيء المطبخ.. وأملأ براد الماء.

لم يجد ما يقول.. بدا له أنه من السخف أن يكون عصبيًا إلى هذا الحد.. من ثم أشار

إلى (عزت) كي يتجه للمطبخ.. ووقف على الباب - على مسافة مأمونة - يراقبنا في أثناء إعداد الشاي دون أن تطرف عيناه..

هتف (عزت) في عصبية، وقد بدأ (الكورتيزون) يهبط في دمه:

- «شاي في هذا الوقت؟ لقد جننت تمامًا يا (رفعت)! ألا بد من أن تدخل القبر بمعدة ملأى بالشاي؟»

وراح يولول في هستيريا.. لكنى واصلت ما بدأته..

قلت للرجل الممسك بمسدّسه:

- «حسن.. سأبدأ من البداية.. أنت أحد التوءمين (ماكليود).. لقد خسرت والديك وأختك في ذلك الحادث المرير ليلة (الكريسماس).. لا أدري ما حدث بعدها..

ربما أرسلوكما لأحد الملاجئ.. ربما تولت أمركما إحدى الجارات.. المهم أنكما كبرتما معًا دون أسرة..

لا أدري لماذا انتظرتما كل هذه السنين.. ربما حتى تصل (ماجي) إلى سن والدكما حين مات.. وربما حتى تمكنتما من جمع المعلومات عنا.. المهم أنه قسم مقدس أقسمتماه.. كنتما تؤمنان أننا حفنة من الشباب المستهتر الذي أفرط في الشراب، وانطلق بسيارة مجنونة ليدمر كيان أسرة..أ.. هل لك في بعض الشاي؟ بالطبع لا.. إنهم يلعبون هذه اللعبة دائمًا ويدسون سمًا للمهدد.. شاي يا (عزت)؟ بالطبع لا.. إن معدتك لا تتحمل الكلمة ذاتها..

كنت اقول إن إيمانكما باننا سبب تعاستكما لم يتزحزح.. كانت له ذات منزلة العقيدة الدينية.. ولا بد أنك أقسمت ذات ليلة أنت وأخوك على الانتقام..

كيف عرفتما ما عرفتماه؟ ربما من سجلّات الشرطة.. ربما صار أحدكما شرطيًا أو موظف إحصاء.. المهم أنكما قرأتما محضر الحادث، وعرفتما أسماء ركاب السيارة.. وأن قائدتها تدعى (ماجي ماكيلوب).. هي التي صدمت سيارة أبيكما. وهي التي رفضت أن تتفقد الحطام المحترق.. ولو لم أخف أنا و(ألفرد) لانقاذكما لكنتما طعمًا للنيران..

إذن المطلوب جعل (ماجي) تتعذب.. يجب أن ترى كل من تحب يرحلون بعيدًا.. يجب

أن تظل قلقة خائفة.. لا تدري هل يكون دورها بين السبعة أم لا..

كان مصرع (جون مكارثر) سهلًا.. لعبة غاز العادم يمكن تنفيذها ببساطة (هيلين بلاكلي) أيضًا ماتت محترقة ولم تكن هذه مشكلة.. المشكلة الحقيقية هي موت (تابيثا) في اليونان في سجنها.. ربما رشوتما الحراس.. ربما اتفقتما مع سجينة أخرى معها في ذات السجن..

بعد هذا مات (آلفرد).. كنتما مخطئين في قتله.. فهو منقذكما.. لكنه مات ببساطة في حوض السباحة.. ثم مات (ماكنزي) في اليابان مشنوقًا لا بد أن أحدكما لحق به هناك.. واضح أن الوالد قد ترك لكما ثروة لا بأس بها..

ثم جاء دور (ماري).. اللعبة الحقيقية كانت هنا في مصر.. فأحدكما عرف أن (ماجي) فرت إلى مصر.. ولحق بها هنا.. بينما بقي الآخر في انجلترا ليقتل (ماري).. هذا أعطانا انطباعًا بتواجد القاتل في كل مكان..

كان من السهل أن يعرف عنواني.. لا بد أنها كانت صدمة رائعة أن يجد أن ضحيته السابعة - أنا - موجودة مع (ماجي) في مكان واحد.. ولكن كيف عرفتم رقم هاتفي؟»

ابتسم في هدوء وهو يرقب براد الشاي.. وغمغم:

- «خمّن!»

- «لقد أخبرت (ماجي) (سكوتلانديارد) به.. لو كان أخوك شرطيًا كما افترضنا آنفًا فمن السهل عليه أن يعرف الرقم، ويبلغك به في مصر.. هكذا كانت كل تحركات (ماجي) تحت الرصد.. ربما باستثناء المكان الذي أخفيتها فيه الآن..

ولكن عندي سؤالًا بسيطًا:

لماذا لم تحرماها من أبيها السير (ماكيلوب)؟»

- «كان العجوز على رأس القائمة.. لكنه مات قبل بدء التنفيذ..»

- «مفهوم.. مفهوم.. إن (ماجي) مقطوعة من شجرة كما يقول المصريون.. وما دامت لا تملك أسرة فلا بأس بتدمير

أصدقائها.. إن العدالة الشعرية تقضي بإبادة كل من كانوا في السيارة في تلك الليلة..

أراهن على أنكما لم تصدق المحضر الذي يبرئنا قط.. حسبتما أنّ هذا نتيجة لثراء ونفوذ أبيها.. الابنة تلهو بسيارتها ثملة، والأب يسدّد الفواتير ويشتري الضمائر... أليس كذلك؟»

ونظرت له في تحد وقلت:

- «أنتما تعرفان أن أباكما هو المخطئ.. هو الذي قاد السيارة بأسرته وهو ثمل لايفقه ما يقول.. لكنّها المكابرة..»

قال بلهجة منذرة من بين أسنانه:

- «اخرس»

- «ليس هذا كل شيء.. أنت أحمق كذلك.. جئت الليلة كي تنال مني وانتظرتني

طويلًا بعد اقتحام الشقة.. كانت خطتك هي إلقائي من أعلى لهذا لم تحمل مسدسًا معك..
لكن عثورك على مسدسي جعلك تقرر تغيير أسلوب القتل..
لكنك أحمق - كما قلت - فلم تحاول التأكد من وجود طلقات بالمسدس قبل أن تهددني به؟»
صاح في جنون وهو يمد يده لمظروف الطلقات:
- «يا للشيطان! أنت تمزح!»
- «ليس هذا فحسب..» - قلتها وأنا أدير ظهري له - «... أنا اكتشفت ذلك بنفسي عندما عدت للشقة.. لكني افترضت أن المسدس الفارغ يثير الرعب الذي يحدثه

المسدس الملىء.. ثم إنك تركتني أعد الشاي.. وهذه حماقة لا توصف لأن....»
كان يحاول تفحص المسدس، وكان هذا ما أريده.. لحظة فقدان للتركيز كانت كافية كي أقذف ما في البراد من ماء مغلي في وجهه مباشرة.. كانت إصابة موفقة.. وأصدر صراخًا كصراخ أسد يذبحونه في أحد مطاعم ألمانيا التي تقدم الأسود (لو كان هذا صحيحًا)...
وهنا صحت في (عزت) وأنا أركض إلى الباب:
- «هلمّ يا (عزت)! فلنفر!»
لم يكذب (عزت) خبرًا.. أمّا أنا فوجدت من واجبي أن أقوم بعمل أخير على سبيل المجاملة.. التقطت يد الهاون التي أضعها

فوق رخامة المطبخ، وهويت بها على يافوخ الرجل.. الرجل الذي لم يعد يرى..

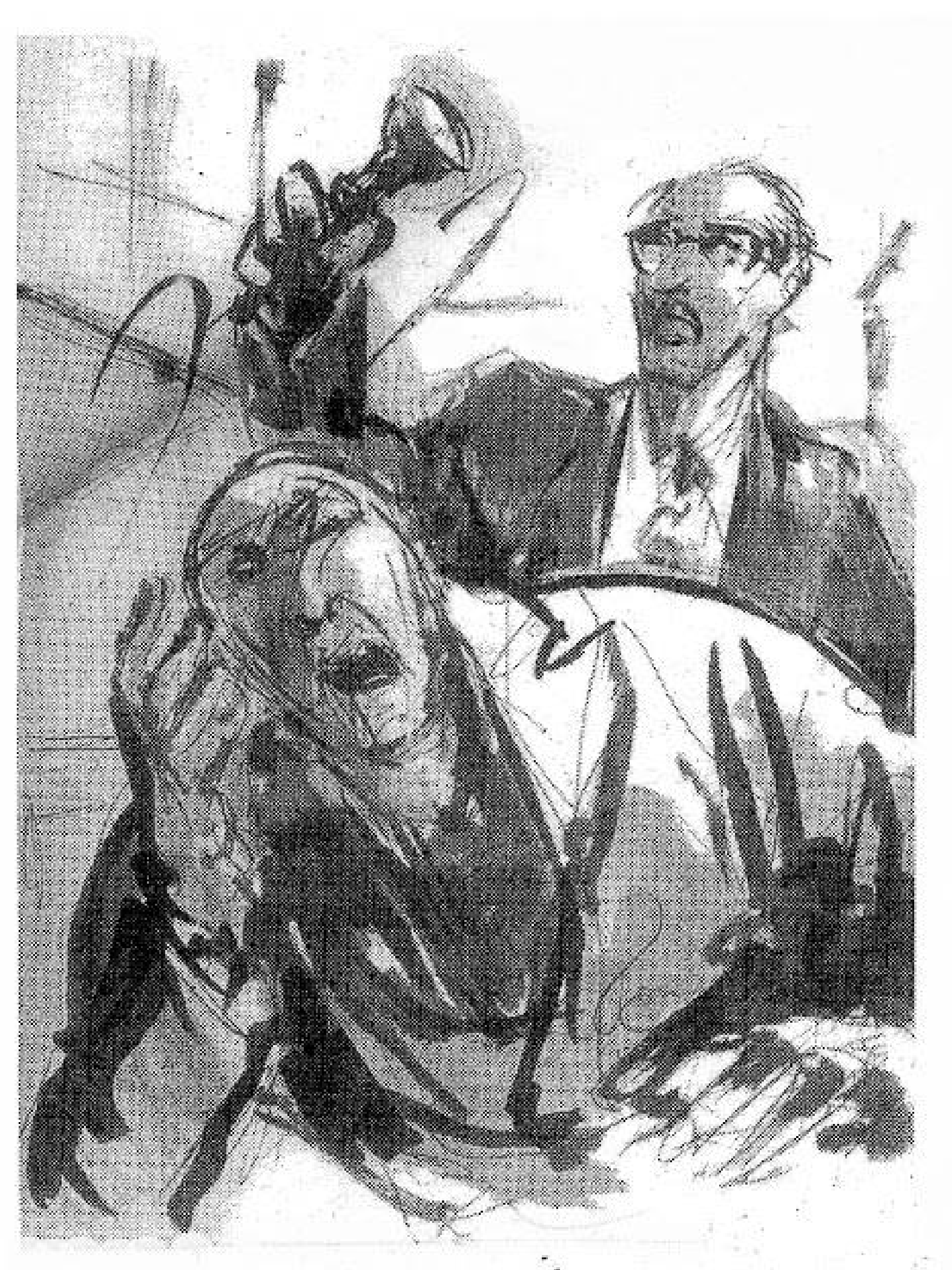
كليك**!** كليك**!** كليك**!**

رصاصات وهمية لا حصر لها تنطلق من يده المتقلصة على الزناد..

رصاصات كان المفترض أن تمزقني إربًا..

لكنه لم يسقط أرضًا.. ورأيت أن كل هذا كاف جدًا.. فهرعت إلى الصالة خرجت إلى السلم.. وأغلقت الباب خلفي.. لحسن الحظ أن المفاتيح في جيبي.. أحكمت إغلاق الباب من الخارج ورحت أتعثر عبر درجات السلم.. كان الجيران جميعًا يقفون خارج شققهم.. لقد كان صراخ (عزت) كافيًا لاختراق حاجز الضوء ذاته.. وسمعت من يقول إنّه أبلغ الشرطة.. قابلني (عزت) لاهثًا.. فعانقني وقال ولعابه يغمر وجهي:

- «مناورة رائعة.. كنت أعرف أن المسدس محشو لكنك خدعته!»



التقطت يد الهاون التى أضعها فوق رخامة المطبخ ، وهويت بها على يافوخ الرجل . .

- «بالعكس يا (عزت).. المسدس فارغ بالفعل.. ما كنت لأجد الأعصاب التي تسمح لي بهذه المناورة لو لم أعرف أنه لا قتل هنالك.. وعلى كل حال أنت مدين لشرود ذهني بحياتك!»

كلام كثير قيل حتى حضر رجال الشرطة أخيرًا..

سألني الضابط الوسيم إياه وهو يصعد في الدرج مارا بنا:

- «تبدو لي مصممًا على الموت الليلة.. هل أنت واثق أنه نفس الشخص؟»

- «لا أدري.. لكنّها ستكون مصادفة غير عادية لو قرر اثنان قتلي في ليلة واحدة..»

وانتظرنا.. انتظرنا سماع صوت المعركة وهبوط رجال الشرطة بأسيرهم، مكبلًا

يقاوم كثور برّي.. ويتوعدنا بالثبور...
لكننا لم نسمع شيئًا.. لا شيء على الإطلاق..
وبعد دقائق رأينا رأس الضابط يطل من أعلى ويتساءل:
- «هل تعلمان ما يوجد في الشقة؟ لا شيء على الإطلاق! لكننا وجدنا رسالة كتبها لكما.. كتبها بالإنجليزية.. يقول إنّه (نورمان ماكليود) الأب ذاته.. فما معنى هذا؟ يا لك من طفل! إنك ترتجف كمن رأي شبحًا!»

❋ ❋ ❋

# الخاتمة

حين عدت للقرية: كان بيتنا هو أول مكان قصدته..

قابلت (رئيفة) على الباب فعانقتها.. وقلت لها إنني جئت لأخذ (ماجي) قالت لي وهي تصحبني إلى الداخل:

- «أوكاى OK! ولكن لا بد أن تتناول الغداء معنا..»

أصابني الذهول.. ودخلت وراءها متوجسًا..

كانت (ماجيٍ) - ابنة السير (ماكيلوب) - ترتدي منديلًا بـ (أوية)، وجلبابًا من

جلابيب (رئيفة).. لا بأس بهذا.. لكنّ الأسوأ لم يأت بعد....

الأسوأ هو أنها كانت جالسة على مقعد صغير، وقد أراحت فخذها على عنق أوزة.. وراحت تدس الحبوب في فمها..

أشرق وجهها حين رأتني.. وهتفت في مرح:

- «مرحبًا بك.. صبرًا.. فقد انتهيت من (تزغيط) هذه الأوزة!»

(تزغيط)؟ قالتها بالعربية طبعًا وسط عبارتها الإنجليزية.. ثم إنها رفعت الأوزة من تحت جناحيها كأي فلاحة محترفة، وأطلقت سراحها.. وإليّ خفت ماسحة يديها في جلبابها.. فقلت لها:

- «أراك قد تأقلمت كثيرًا..»

- «جدًّا! لقد أحببت كل شيء هنا.. إنّه العلاج النفسي الذي لم أجده في كل عيادات شارع (هارلي)..»

ثم نظرت إلى (رئيفة) وسألتها بعربية رديئة جدًا:

- «هل... الخبز.. جيد؟»

نظرت لي (رئيفة) بدورها.. وابتسمت في فخر وقالت مفسرة:

- «لقد أتقنت الخبيز تمامًا.. وهي تمضي ساعاتها أمام الفرن، وتحاول تعلم كل شيء.. بنت بلد حقيقيّة..»

قلت لـ (ماجي) وأنا أكتم ضحكتي:

- «يبدو أنك قابلة للإفساد بسهولة..»

- «هن كذلك تعلمن منى الكثير..»

انتحيت بها جانبًا، ورحت أحكي لها ما حدث بالتفصيل...

اتسعت عيناها وراحت تصغي.. وشيئًا فشيئًا بدأت تفقد مرحها.. لقد كان ما أقول غريبًا إلى حد لا يصدّق..

قلت لها نظريتي بخصوص التوءمين، فقالت وهي تبتسم بمرارة:

- «هذا غير وارد.. فالتوءمان ماتا بعد أعوام في أحد الملاجئ.. يبدو أنهما كانا مصابين بمرض خلقي ما..»

- «كنت تعرفين هذا؟»

- «بالطبع.. إنني لم أنس ضحاياي قط!»

عدت أواصل سرد قصتي إلى نهايتها..

قالت لي في شيء من الراحة بعد أن انتهيت:

- «هكذا.. هذا هو ما توقعته..»
- «توقعت أن الأب يطاردك؟»
- «لِمَ لا؟ إن نظرية التوءمين المنتقمين لا بأس بها.. لكنّها مفتعلة.. لا أحد يستطيع العثور على سبعة أشخاص بعد كل هذا الزمن، ويفتك بهم بهذا النظام وهذه الدقة.. هذا يحدث في الروايات البوليسية.. لكنه عسير جدًا في الواقع.. كنت أشعر أن الأمر خاضع لقوي ميتافزيقية معينة.. وكنت على حق..»
- «(ماجي).. هل تعتقدين حقًّا أن شبح الأب عاد بعد كل هذه الأعوام ليقتل من تحبين؟ وينتقم منك لتدمير أسرته بأكملها؟!»

مطت شفتها السفلى في تفكير.. ثم غمغمت:
- «بالتأكيد..»
- «ولماذا انتظر كل هذا؟»
- «حتى أكون أنا في ذات السن التي مات فيها.. وعلى كل حال لقد كان انتقامًا بارعًا.. كاد يوصلني إلى الجنون ولا مراء..»
ثم باشمئزاز أضافت:
- «إنّه عنيد.. يأبى الاعتراف بالحق..»
قررت أن أسألها السؤال الذي كنت أهاب التلفظ به:
- «هل سيواصل مهمته؟»
- «لا أعتقد.. وآمل أن أكون محقة.. معظم الأشباح تكف عن الإزعاج بمجرد

أن يعرف الآخرون هويتها وسر إزعاجها.. وهو قد أنهى انتقامه... في الغالب اكتفي بما فعله معك، لأنك رجل طيب مثابر.. ثم هو - حتمًا ـ يعرف أنك أنقذت ابنيه من الحطام المحترق..»

- «(ألفرد) فعلها.. لكنّ هذا لم يشفع له..»

ـ «ثمّة نظرية تقول إن (ألفرد) فقد وعيه في حمام السباحة وكان هذا سبب غرقه.. من يدري؟ ربما لم يغرقه الشبح واكتفي بالظهور أمامه، وكان هذا كافيًا ليفقد وعيه ويغرق..»

- «وددت لو أتكلم بذات الثقة..»

نظرت لي بعينيها الزرقاوين الصافيتين.. وهمست:

- «إن حسي الداخلي لا يخطئ.. لقد عاودتني الطمأنينة من جديد.. ومعنى هذا أن الكابوس قد انتهي.. (نورمان ماكليود) لن يعود..»

ثم نهضت وجذبت ذراعي هاتفة في مرح:

- «هلمّ لنر ما قمت به في الدار؟»

وقالت كلمة (الدار) بالعربية كما ينطقها المصريون..

❋ ❋ ❋

كنا واقفين في المطار بانتظار رحلتها..

لم أصدق لحظة واحدة أنها عاشت معي في عالمي كل هذه الأيام.. ولم أصدق -

بالأحرى ـ أن كل هذا سينتهي من جديد..
كنت أغالب دموعي.. لكنّ زجاج عويناتي اكتسى بضباب كضباب (لندن) في يوم خريفي كئيب..

- «(رفعت).. لا تكن طفلًا..»

قلت لها وأنا أتمخط:

ـ «ألن تغيري قرارك؟»

ـ «نعم.. قلت لك أن أجمل ما في علاقتنا هو أننا متباعدان، ومن عالمين مختلفين.. ومهما امتد الزمن يعرف كل منا أن الآخر يحبه حقًا.. يحترمه حقًّا.. يقبل الموت من أجله حقًّا.. إن زواجنا يعني المخاطرة بهذه الصلة الروحية الرائعة، التي قد تتحول إلى لعنات متبادلة..»

- «ولكن...»

- «صدقني..» ـ قالت وهي تمسك بيدي مشجعة ـ «.. إن ما يجعل القمر جميلًا هو كونه بعيدًا.. فلو دنونا منه لوجدناه مليئًا بالحفر والتجاعيد كوجه مجدور.. أنت لا تعرف عيوبي.. لكني لن أدعك تقترب إلى حد رؤيتها..»

ـ «تعرفين عيوبي كلها..»

- «أعرفها.. لكنّها حتمًا أكثر مما أظن..»

ثم وضعت منظارها الأسود لتعود إلى ذات الشخصية الغامضة المغلقة:

ـ «ومهما طال الزمن فسيعرف كل منا أن الآخر يحمل له ذات العاطفة وذات الذكريات.. أنا لن أسمح لك بأن تملني أبدًا..»

وشكرتني على ما فعلته من أجلها في هذه الزيارة..
وسمعنا مكبر الصوت ينادي ركاب الرحلة فتهيأت للرحيل.. ولم تنس أن تسألني وهي تلف حمالة حقيبتها على كتفها:
- «للأبد؟»
- «ماذا؟»
- «ستكون ملكي للأبد؟»
- «وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى.....»
لكني لم أكمل العبارة الأخيرة كالعادة..
كنت أبكي كطفل تركته أمّه وحيدًا في الدار..

* * *

انتهت هذه القصة..

وحسبت أنني سأمر بفترة هدوء لا بأس بها..

لكني كنت كالعادة واهمًا.. وكان هناك (رفعت إسماعيل) آخر يتحين الفرصة كي يعلن عن وجوده......

ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم
*الإيداع:*
١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية

القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

# الفهرس

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

# أسطورتها..!

أسطورتها أنها تعود دومًا فى وقت لا تتوقعه ، لتواجهك بكارثة ليست فى الحسبان ، وتطلب حلا ليس فى إمكانك، لتدرك بعدها أنك فى مأزق مخيف، وأنها جاءت معها بقاتل خارق للعادة .. أسطورتها أنها تعرف أنك لن تستطيع التملص ، ولا انتحال الأعذار !



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:

أسطورة رفعت



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم